

جولزورڈی

عدو الطغاة . حیاته وآدبه

۴۲۱ اقرأ

دارالمعارف بمصر

(اقرأ - ٤٢١)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

عن أدب جلزورذى ومسرحياته

بقلم

الأستاذ الباحث أحمد خاكي

دفع إلى الأستاذ رشدى السيسى بأصول كتابه عن جون جلزورذى قائلًا : « انقده . . . ولا تجعل دراستنا أو حبنا المشترك لهذا الرجل العظيم ، عدو الطغاة ، سبباً فى الرفق بكتابى أو الشناء عليه » ولكنى طالعتة منتشياً ، لما أثاره فى نفسى من ذكريات عن هذا الكاتب الكبير ، وحالما انتهيت من مطالعته رحت أثبت بعض هذه الذكريات فى نقاط أجملها فيما يلى :-

١ - مكانة جون جلزورذى فى الأدب الإنجليزى فى مبدأ القرن

العشرين .

٢ - خصائص جون جلزورذى الأدبية .

٣ - فن جون جلزورذى المسرحى

* * *

حين آذن القرن التاسع عشر بالانتهاء كان للمجتمع الإنجليزى سمات معينة من المعتقدات والآراء ، درج المؤرخون وخبراء علم الاجتماع على تسميتها « بالمجتمع الشيكتورى » ، وهو مجتمع محافظ تميز بالإيمان والتمسك ببضعة من المثل التى توهم الجميع أنها لابد باقية إلى الأبد .

وكانت هناك الإمبراطورية الشاسعة ، والدستور البريطاني ، والمدرسة العامة ، وحياة الأسرة ، والدين ممثلاً في الكنيسة ، وكلها أمور نظر إليها الإنجليز في العصر الفكتوري كأنها قمة التقدم في تاريخ الخليقة ، واعتقدوا أنه لم يعد ثمة ضرورة أو مجال لتطورها ، إذ آمنوا بها وأخذوها على أنها قضايا مسلم بها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وهكذا أصبح المجتمع مسوقاً في كل هذه الشئون بالعرف والتقاليد والقوانين الوضعية يمثلها أصحاب السلطة ، حتى أصبح للمعلم والقاضى والقسيس كل الوزن في التحكم في هذا المجتمع .

* * *

وإذا كان الأدب ظاهرة اجتماعية فقد كان أدب العصر الفكتوري ، في أكثر نواحيه ، مرآة لهذا الذى ذكرت ، فقد كان الأدب يؤيد هذه الأمور التى آمن بها الإنجليز إيمانهم بالله تعالى ، ولم تكن الروايات ولا القصص ولا الشعر في العصر الفكتوري - في أكثر الأحوال - إلا تعبيراً عن التمسك بهذه المعتقدات ، فكثيرون من الكتاب لم يزدوا على أن يصفوا حياة الواقع التى كان يعيشها الدهماء . والفلسفة السياسية حتى عند قيام الاشتراكية كانت تتجه نحو الرجوع إلى القانون وحماية الدستور ، كذلك كان نوع التعليم الذى يلقنه الإنجليز لأبنائهم بدفعهم إلى الاستعلاء على غيرهم من أبناء المستعمرات ، بينما كان الاقتصاد يكبل النزعات الاشتراكية بقيود الرأسمالية ، وصفوة القول إن المجتمع كان ينصت دائماً إلى صوت السلطة : إلى صوت هؤلاء الذين ارتفع بهم النظام إلى مكان الحكم أو إلى

صوت أولئك العلماء والأدباء الذين تتجّه بحوثهم وكتاباتهم إلى تأييد كل ظواهر العصر الفكتورى وسماته .

* * *

كان الناس يتقبلون القوانين والأحكام والمعتقدات بالتصديق المطلق ، بل كانوا يعتبرون هذا التصديق نفسه بضعة من « الإيمان » ، وكان أشد ما يوجه إلى أى مجتهد أو أى ناقد من اتهام أن يقال عنه إنه « فقد إيمانه » — ولكن هل كانت كل هذه المبادئ إلا واجهة براقّة تخفى بين طيات كيائها كثيراً من الشدوخ التى ظلت تتسع وتسرى فى كيان المجتمع حتى تحطم ؟ ... أجل لقد قيض الله للمجتمع الإنجليزى فى مستهل القرن العشرين مدارس من أهل الفكر والعلم والأدب استطاعت أن تكشف عن الرذائل والفضائح التى كانت تسترها هذه الواجهة البراقّة ، وكان للأدباء النصيب الأوفى فى كشف الغطاء عن هذه الرذائل ، ومن بين رواد هذه المدارس وأقطابها ه . ج . ولز ، وإدوارد برناردشو وجون جلزورذى .

* * *

كان لهؤلاء ولعديد غيرهم صوت أعلى من صوت السلطة ، وكان ديدنهم — كل فى مجاله — أن يبصروا الناس بنقاط الضعف فى هذا المجتمع الذى قدسه الناس وزعموا أنه ثابت لن يتحول ، وغمرت تيار الأدب موجة من « التساؤلات » التى كانت تتردد على هذا النحو :

- ١ — هل حقاً كان هذا الإيمان صادقاً بعيداً عن الزيف ؟
- ٢ — وهل حقاً كانت النظم البرلمانية كفيلاً بأن تمثل عامة الشعب ؟
- ٣ — وهل كان حقاً ما جاء به رجال الدين من أن الدين هو العدالة ؟

- ٤ - وهل حقاً تستمتع الكافة من الناس بالرفاهية التي يدعيها العسكريون ودعاة التوسع الإمبراطوري ؟
- ٥ - وهل كان الأغنياء والعلماء والمحامون والقضاة وأصحاب السلطة مخلصين حين سكنوا إلى هذا النظام الاجتماعي وصوروه في صورة المجتمع الذي تنزلت أسسه من لدن الله تعالى ؟

* * *

لا أحسب أنني في حاجة إلى مناقشة السيد الأستاذ مؤلف الكتاب، فيما أتى به من موازنة بين برناردشو وجون جلزوردي ، ولكن لعل برناردشو كان أعنف بكثير من جلزوردي في هذا الانقلاب الذي تدرس به الكتاب الإنجليز في مستهل القرن العشرين ، وعندنا أن الفكاهة عند برناردشو كانت أمضى ، بل ولعلها كانت أفعل وأشد أثراً من الطريق السوي الذي اختطه جون جلزوردي ، وحسبنا في هذا المقام أن نقرر أن الاثنين قد اشتركا في حركة « التساؤل » التي اتجه إليها الأدباء ، وأن برناردشو قد تحدى المجتمع جميعه في سلاطة وسخرية واستهزاء ، وإن كان يخفى في هذه السمات آراءه في العلم والدين والاقتصاد والاجتماع والفلسفة ، في حين أن جون جلزوردي كان « أرسقراطي » النشأة والخلق ، يتخير كلماته بدقة الصانع الماهر ولا يميل إلى العنف أو التحدى في مساجلاته . كان برناردشو متحاملاً يميل إلى ناحية من النواحي حتى يثبت آراءه ويؤكد لها ، في حين أن جون جلزوردي كان رجل قانون يريد أن يعرض قضاياها بما لها وما عليها .

* * *

كانت مهمة الأدب عند جون جلزوردي تتجلى في هذا « التساؤل »

الذى نوهنا عنه ، وعنده أن وظيفة الأديب ، سواء أكانت فى الرواية أم المسرحية أم الأقصوصة ، هى أن يبين للناس الرذائل التى تخفى عليهم فى البيئات التى يعيشون فيها ، وفى مؤلف له بعنوان « فندق السكينة » "The Inn of Tranquility" يصور جلزورذى شخصية رجل يسميه « سيثرو » - وهذا الاسم منحوت من الكلمتين "See through" أى انظر بعمق - يحمل مصباحاً كشافاً ، ويندس فى النواحي المظلمة من حياة المجتمع ، حيث يكشف للناس الذين يكونون كافة طبقاته ، ما يعج به هذا المجتمع من المفاصد والدنايا .

وسيثرو هذا ، أو صاحب المصباح ، يمثل -- عند جلزورذى - الأديب الذى يريد أن يكشف عن هذه المساوئ بكتابات ومؤلفاته وجهاده وحينما يعرض لفكرة المصباح مرة أخرى يقول : « إن الفن الطبيعى يشبه المصباح الثابت ، يرفعه الأديب من وقت لآخر ، فيلقى الضوء فى فترات على أشياء يظهرها بوضوح فى أبعادها الصحيحة حيث لا بغشاها ضباب التحامل ولا ميول الهوى » .

وهذه العبارة التى اقتبسناها من أقوال جون جلزورذى نفسه تلخص للقارئ تلك الخصائص والسمات التى تميز بها الكاتب ، وهى خصائص معنوية وعدنا أن نفردها مكاناً خاصاً فى هذا البحث .

* * *

ولا بد أن نذكر هنا حقيقتين مهمتين عن حياة جون جلزورذى : أولاً أنه انحدر من أسرة أرستقراطية ثرية ، والثانية أنه درس القانون ، ولكل من الحقيقتين وزن كبير فى اتجاهات الكاتب الأدبية . فأما عن

أرستقراطيته فمن المعروف أنه نشأ في أسرة عريقة ثرية ، وأنه نعم بحياة مترفة منذ مولده حتى يوم وفاته ، وأنه كأولاد الخاصة من الإنجليز التحق في طفولته وصباه بمعهد هارو الشهير ثم درس القانون بجامعة أكسفورد ، ولذلك كان يعلم كل شيء عن هذه الطبقة الأرستقراطية التي ينتسب إليها ، هذا بالإضافة إلى أنه كان في الوقت ذاته كلفاً بدراسة وتقدير حياة الداهية والعامة والمعدين في الأرض ، ومن ثمة استطاع أن يصور في قصصه الحياة بوجهيها الباسم والمتجهم . أما عن دراسته للقانون فقد أثر هذا في حياته أشد التأثير ، وعلى الرغم من أنه لم يمارس القانون إلا قليلاً ، إلا أنه أقام من نفسه حكماً في كل القضايا التي عالجها ، وبخاصة في مسرحياته ، التي كان يلتزم فيها العدالة كأنما هو قاض يريد أن يزن بالقسطاس المستقيم الحجاج والتصرفات وأنواع السلوك والظروف التي يصدر أحكامه على أساس منها ، ويظهر هذا جلياً في مسرحيات مثل « العدالة » و « الكفاح » و « الصندوق الفضى » .

* * *

لكن جون جلزوردي يمتاز بشيء نفسي آخر أسمى من هذه وتلك ، ذلك أن في النفس الإنسانية نوازع وعوامل لا يمكنك أن ترجعها إلى عراقة الأصل ولا إلى نظام التربية ، أجل ، في النفس الإنسانية عبقرية غير تلك التي نلتمس لها الأسباب أو نخلق لها المعاذير ، وقد ركبت في نفس جلزوردي عاطفة نبعت منها كتاباته جميعاً وتدفقت في مسرحياته بنوع خاص ، فقد كان حين معالجته لأي موضوع أو « تساؤل » يعرضه كمحام أو كقاض يلتزم أصول المنطق ، ولكن ثمة شيئاً في منطقته يشعر أن عاطفته

تميل إلى الشخص « المهضوم الحق » ، ولذلك أصبح هذا الشخص « المهضوم الحق » هو البطل الذى يستهوى قلبك لدى مطالعتك أية مسرحية من روائع مسرحيات جون جلزورذى . وفى اللغة الإنجليزية يقال إن فلاناً « كلب مغلوب » كناية على أنه يمثل البؤس والشقاء والعذاب الذى يلقاه من الناس ، وكان جلزورذى يأخذ دائماً جانب هذا الكلب المغلوب !

* * *

وبصرف النظر عن هذه الكناية التى ذهبت مثلاً فى أصول اللغة الإنجليزية فقد حاول جلزورذى أن يصوغ قصة « الكلب المغلوب » فى إحدى روائعه ، ولعل هذه القصة تشير إلى اتجاهه الأسمى فى الكتابة الأدبية . وملخص هذه القصة أن جرواً صغيراً ولد فلم يجد له مأوى ، وطارده الناس فى كل مكان : التقى بعامل جلف ركله ركلة أطاحت به إلى عرض الطريق ، ثم وقع فى أيدى بعض تلاميذ المدارس فرجموه بالحجارة ، وحمله رجل طيب إلى منزله ينوى إيواؤه ولكنه خاف منه على أبنائه خشية أن يكون مصاباً بمرض معدٍ فألقى به إلى الطريق العام مرة أخرى ، ثم حمله بعض الصبية إلى منزلهم منهلين ، ولكن أباهم غضب وأبى إلا أن يعودوا به إلى حيث كان ، ودلف إلى حانوت إسكافى غليظ القلب رماه بمطرقة حطمت جزءاً من جسده الهزيل فراح يجر جسده جراً وهو بين الحياة والموت ، وأخيراً التقطه رجل رحيم القلب فأواه فى منزله وأشرف على علاجه . . . ولكن بعد فوات الأوان فقد مات « الكلب المغلوب » !

* * *

هذه القصة على بساطتها ترمز إلى فيض العواطف الكريمة التي كان يحسها جون جلزورذى ويحيش بها فؤاده حين يعالج موضوع الكلاب المغلوبة في هذه الحياة ، والكلاب المغلوبة هنا ليست إلا الآدميين الذين ينتشرون في جميع أنحاء الأرض ، إنهم هم المهضومون حقاً الذين تكتلت الظروف لا لتحرمهم نعم الحياة فحسب بل ولتنكر عليهم الكفاف من العيش ، وهكذا ترى أنت هؤلاء وتطالعك وجوههم الشائثة الشاحبة كالأشباح في روايات جلزورذى ومسرحياته مثل مسرحية « العدالة » ومسرحية « الكفاح » فهم أفراد سدت في وجوههم الطرق ودفعتهم الظروف الجائرة وأصدرت عليهم دور القضاء أحكامها بالشقاء ، ثم تراهم وهم يمثلون طبقة مهضومة حين يحكم النظام على استعباد طبقة ما لطبقة أخرى في مسرحيات مثل « الصندوق الفضي » و « الابن الأكبر » بل إنك لتراهم أيضاً في مسرحيات مثل مسرحية « السوق » حين تستعمر بلد بلبداً آخر باسم القانون والتقدم والعناية الإلهية .

* * *

إذا أنت بحثت مسرحيات جلزورذى في ضوء هذه العاطفة وجدت أن شخصياته المسرحية تنقسم إلى قسمين : أحدهما يشمل الجانب القوى المعتدى صاحب السلطة الذي يتظاهر بالتمسك بالقانون والدين والدستور والعلم ويستخدم كل هذا في العدوان السافر والمستتر ، أولئك هم « المطاردون » ، والقسم الثاني ينضوى تحت لوائه أشخاص من العاملين الكادحين المتعجين الذين يرزحون تحت وطأة الرق والاستعباد ويشقون تحت نير السلطة ، وهؤلاء هم « الهاربون » أو « المطاردون » : الأولون عبيد

للخوف والكراهية ، ولذلك فهم يخشون الآخرين أشد الخشية ، ومن تمة يكرهونهم أشد الكراهية ويمقتونهم أشد المقت ، أما الآخرون فهم أذلاء مستضعفون راضخون للجور والعدوان ، يلتمسون الشفقة ويبتهجون بأية بارفه من الرحمة إذا ومضت لهم ، هؤلاء يستثيرون عندك الموجدة والحفيظة وأولئك يملأون قلبك بالرحمة والرثاء ، فأنت إذ تقرأ مسرحية من هذه المسرحيات تجد نفسك نهياً موزعاً بين الخوف والكراهية من ناحية ، وبين الاستسلام والرحمة من ناحية أخرى ، ومن هنا كانت العقدة المسرحية التي تبرز في مسرحيات جلزوردي .

* * *

تلك هي المعاني التي تختلج بها النفس حين تعرض لجون جلزوردي ، ولأن فلنعد الآن لنناقش مرة أخرى العلاقة بين كل هذا وبين هذا المجتمع الذي راح يستقبل هذه الروايات والمسرحيات ، وهنا أيضاً نريد أن نسترجع جانباً من الموازنة بين برناردشو وجلزوردي ، فقد سبق أن ذكرنا أن برناردشو كان أعنف في مسرحياته وأشد في النقد وأكثر أثراً في هذه الثورة التي اشتعلت ضد المجتمع الفكتوري ، ولكن جلزوردي هو الآخر كان يستخدم المسرحية في نقد المجتمع وكانت له في ذلك طريقته الخاصة : كان برناردشو متأثراً بمسرحيات إيسن وكان جلزوردي أيضاً متأثراً بهذه المسرحيات ، وكان برناردشو مطلعاً على آثار تشيكوف وكان جلزوردي أيضاً متأثراً بالأدب الروسي بوجه عام ، وإذن فالاثنان كانا مشتركين في اتجاهاتهما نحو الأدب وفهمهما لوظيفته ، مع بعض الاختلاف في الأسلوب إذ أن روح الدعابة أو السخرية التي اتسم بها كل إنتاج برناردشو هيأت

له أن يكون هجاءً ذا نكتة فأسدل على كل المشكلات التي عاجلها جواً من الدعابة تحدث به جميع النظم السائدة .

* * *

بيد أن جون جلزوردي يتميز على برناردشو في ناحية اجتماعية دقيقة ، ذلك أن مؤلفات جون جلزوردي من روايات وقصص ومسرحيات لاقت قبولا لدى الجمهور منذ أول وهلة ، فقد كان هناك تجاوب بينه وبين هذا الجمهور الذي كتب له ، أجل ، كان جون جلزوردي يكتب فيستجيب له جمهور كبير من الأشراف وأوساط الناس وأوشابهم إذ نخلت مسرحياته من السخرية والدعابة وشطحات الخيال التي لونت مسرحيات برناردشو أو شابتها فأخرت التجاوب بينه وبين الجمهور حوالى عشر سنوات ظل طوالها مغلقاً على التهم ومعدماً أو يكاد حتى تداركته عناية بعض المخرجين في أميركا فأتتجوا له مسرحية « تابع الشيطان » وكانت أول اعتراف بعبقريته ككاتب مسرحي .

* * *

نفول إن في هذا درساً في النجاوب بين الفنان وجمهوره . فهذا التجاوب أو ما يسمونه في الإنجليزية "Communicability" هو في الصميم من تقديرنا لـ "جلزوردي" بل هو في الصميم من تقديرنا لعدد عديد من الفنانين من شعراء وكتاب ورسامين ومصورين ، فهذا التجاوب إنما هو أساس كبير لاستزادة الفنان فيما ينتجه وفي تطوير هذا الإنتاج ، وجون جلزوردي من نخبة الذين حظوا بنعمة هذا التجاوب ، فقد كان يتحدث في ثقة دارس القانون ، ويضع قضايا هؤلاء المطاردين وأولئك المطاردين في

إطارات من المنطق السليم المحبوك فيقبل الناس ما يقول قبولاً حسناً . ثم هناك بعد ذلك الأثر النفسى على القراء والنظارة كان يحس أنه واحد من هؤلاء الذين تعالج قضيتهم المسرحية المعروضة ، وهذه ذروة التجاوب . وقد اشتد هذا التجاوب بين مؤلفات جون جلزورذى وبين كافة طبقات المجتمع ، بل لقد اشتد أيضاً بين هذه المؤلفات وبين المثقفين والمتشاهدين من غير قراء الإنجليزية ، بل لا يزال يستجيب قوم مثلنا لا ينفكون يرون وجهات نظرهم في كتبه جلزورذى عن قضايا الاستعمار والحرب واستغلال البلاد القوية لغيرها من البلاد الضعيفة المتخلفة وعدوان القوى على الضعيف .

* * *

أقول إن هذا التجاوب سر من أسرار المكانة التى حظى به جلزورذى فى حياته ولا يزال يحظى بها فى سجلات الأدب الإنجليزى . فأنا أذكر مثلاً تجاربى الشخصية فى هذا المضمار ، فقد قرأت لجلزورذى « قصة آل فورسيت البطولية » فى مقتبل العمر ، وما زلت أذكر كيف أنه على مدى الأربعين سنة الماضية حدثت قصص عديدة لأسر مصرية أعادت إلى الأذهان هذه الدائرة التى انتقلت بآل فورست من جيل إلى جيل إذ كانت تكررأً لها . لقد كان فورسيت « الأول » أو « الجسد الأكبر » فيما صورته جلزورذى رجلاً ذا مال جمعه وحرص عليه ، وكان همه فى الحياة أن يمتلك كل شىء دون استثناء بما فى ذلك المرأة ، فقد أراد أن يمتلك بماله زوجة جميلة يفاخر بها أترابه ، وبسبب هذا الجشع تتحالف عليه أرزاء الحياة ومآسيها ، وتتحول حياته العائلية إلى سلسلة من المحن تفقده سلام الروح وهدوء النفس وتقطع ورائج التعاطف بينه وبين زوجته الجميلة التى يحبها ،

وتخلف أعقاب من الجيلين الثانى والثالث ، يرثون عن أبيهم وجدهم هذا المال فيحاولون جاهدين أن يتأقلموا وفق ظروف حياتهم الجديدة .

أعقاب من الجيلين الثانى والثالث ، يرثون عن أبيهم وجدهم هذا المال فيحاولون جاهدين أن يتأقلموا وفق ظروف حياتهم الجديدة .

أقول إننى كنت أشاهد هذه السلسلة المطردة الحلقات فى حياة الأسر المصرية التى عاشت فى بدخ وإسراف فى مستهل هذا القرن ، وألمح فى رب الأسرة الأول نفس السمات التى يصورها جون جلزورذى فى « سومز فورسيت » وأشهد نفس التحول الاجتماعى فى ذراريه ؛ كذلك قل عن تجاربى فى مسرحياته ، فالرأى عندى أن آلافاً من المصريين يمثلون « الكلاب المغلوبة » فى مسرحيات مثل « الكفاح » و « العدالة » و « الصندوق الفضى » و « الابن الأكبر » ، بل إن جزءاً كبيراً من تاريخ مصر يمثل الكفاح والجهاد من أجل الحرية والسلام فيما يصوره جلزورذى فى مسرحيات مثل « الأول والأخير » و « الهزيمة » و « السوقه » .

* * *

تلك هى الخصائص التى ميزت جون جلزورذى وأغنت أدبه إذ أمدته بكثرة من الجدة والطرافة ، وهكذا جعلته من أهم رواد الأدب البواسل الذين حطموا تماثيل النفاق التى أقامها الإنجليز فى العصر الفكتورى وراحوا يحرقون لها البخور وينحرون لها الذبائح حتى إذا جاء هذا الكاتب المصلح صاحب المسادى والمثل العليا رنت إليه العيون وأنصتت له الآذان وتقبلته القلوب والعقول فى ترحيب دونه كل ترحيب . ولكن كيف تيسر لهذا الأديب الكبير أن يعبر عن خوالج نفسه ويشارك القراء والمتفرجين فى هذه التجارب الذهنية

التي كان يعرضها^٩ . . هنا نصل إلى الشطر الثالث من هذا البحث وهو ما يتعلق بفنه المسرحي .

* * *

لقد أسهب الأستاذ رشدي السيسى في كتابه في شرح المنهج الذي اتبعه جون جلزوردي عند كتابته لمسرحياته ، وقد أوفى على الغاية في كل ما ذهب إليه خاصة عندما بدأ بذكر الأثر الحاسم الذي كان للكاتب النرويجي « إيسن » على الحركة المسرحية بإنجلترا بل و بالعالم أجمع ، ومن ثمة لم يعد هناك مجال لمتزيد أو لمستزيد اللهم إلا أن نقف برهة عند نقطة معينة نريد أن نتيبها : لقد زعم جلزوردي نفسه في بعض حديثه أن منهجه هو المنهج الطبيعي ، والواقع أن آثاره جميعاً تدل على أنه قد اتبع هذا المنهج في قصصه ورواياته ومسرحياته ، ويطول بنا المقام إذا نحن تتبعنا انتقال المسرحية في أطوارها المختلفة من الرومانتيكية التي اصطبغت بلونها في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى الواقعية التي احتوتها في أوائل القرن العشرين ثم إلى الرمزية التي تشكلت بسماها في الثلاثينيات من هذا القرن . ولكن فلنكتف الآن بأن نثبت أن هذا المنهج الطبيعي الذي اتبعه جون جلزوردي لم يكن إلا شعبة من الواقعية التي غزت المسرحية الإنجليزية ، وأن منهجه الطبيعي هو الذي طوّع له الوسائل لأن ينقل صوراً من الحياة العامة بإنجلترا سواء أكانت منتزعة من الريف أم كانت مأخوذة من الحضر . ويختار جون جلزوردي لأية من مسرحياته موضوعاً من موضوعات الساعة ، يعالجه من كافة جوانبه ، فيتشعب ويتعقد وتتنافر شخصياته ، وينساب الحوار من خلال القصة المسرحية صريحاً موجزاً ، له هدف ذهني

وخلقي خاص ، وينتهى الحوار لا بحل صريح للمشكلة ، يفرضه عليك فرضاً ، بل بمقترحات وقضايا ، عليك أنت أن تفكر فيها ، وأن تجد لها حلاً ، وهكذا سنظل نردد ما سبق أن اقتبسناه عن جلزوردي نفسه من أن « الفن الطبيعي يشبه المصباح الثابت يرفعه الأديب من وقت لآخر فيلقى الضوء بين المينة والمينة ، على أشياء يظهرها بوضوح في أبعادها الصحيحة ، لا بعشائها ضباب التحامل ولا ميول الهوى .

* * *

تلك هي الذكريات التي دارت بخلدى حينما انتهيت من قراءة هذا الكتاب القيم حقاً ، وإني لأحمد للأستاذ رشدي السيسى أنه أتخف قراء العربية بهذا البحث الرصين وما ضمه من روائع جلزوردي ، فشكراً له على جهوده الموققة في خدمة اللغة العربية إن كتابة وتأليفاً أو ترجمة وتصنيفاً . . .

رسالة

أرسلت مسر « أيدا جلزوردي » أرملة الكاتب الكبير « جون جلزوردي » رسالة إلى منشي هذا البحث رداً على ك ب منه متضمناً خلاصة رأيه عن مسرحيات زوجها الراحل . . . وفيما يلي الترجمة العربية لهذه الرسالة الكريمة :

سدي العزيز

استلمت الآن خطابك الخاص بمؤلفات زوجي ، وسأحاول جاهدة أن أضيف إلى البحث الذي تعالجه عن إنتاجه وجهوده في سبيل الأدب والفن المسرحي .

أنهى إليك مع شديد الأسى أن وفاة زوجي كانت في اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير عام ١٩٣٣ أى بعد صدور دائرة المعارف البريطانية ، ولهذا جاءت ترجمتها لحياته مقتضبة غير وافية ، ولا بد أنك لاحظت هذا ، ولذلك أقترح -- فيما لو شئت زيادة معلوماتك عن زوجي -- أن تطلع على كتاب « حياة ورسائل جون جلزوردي » لمؤلفه « ماروت » فهو يفيض بالمعلومات ويضم صوراً متنوعة .

كم أنا آسفه إذ أجد نفسي عاجزة عن أن أرسل إليك إحدى صور زوجي ، فليس في متناول يدي الآن منها ما يمكن الاستغناء عنه ، كما أنه يتعذر عليّ زيارة منزلي بلندن لهذا الغرض نظراً للأحوال الحاضرة ، فإذا جاز لي أن أقترح أرى أن تستأذن « السادة هيمان » ناشري الكتاب الآنف الذكر للانتفاع بما قد نتخيره من الصور التي يحويها .

كنت موفقاً إذ فطمت إلى ما أدخله جلزوردي على الفن المسرحي من

تجديد وابتكار ، والواقع أن قصة « الصندوق الفضى » التى وضعها عام ١٩٠٦ كانت فتحاً فنياً فى تاريخ المسرحية ، وإن لم يفتن الجمهور إلى هذه الحقيقة إلا متأخراً .

أعجبت بالنتائج القيمة الكثيرة التى انتهت إليها فى أثناء دراستك لمسرحياته ، ولكنى لست من رأيك فى بعض ما ذهبت إليه ، فالشخصيات غير المحبوبة التى جاءت بمسرحياته الثلاث : « إنجليزى عتيق » و « الغابة » و « اللعبة القاصمة » لتتضاءل حقاً إذا قورنت بالصور التى رسمها لشخصيات كثيرة غيرها ، والرأى عندى أن الكاتب الذى يتجاهل وجود الأوغاد فى كل مكان وزمان ، ليتعذر عليه أن يصطنع من كتاباته مرآة تصلح لأن تعكس لنا الطبائع البشرية على حقيقتها .

أحس بعجزى عن الترسل ، فالأمر فى حاجة إلى وقت طويل لا يتبأ لى ؛ كل ما يمكنى قوله أن طبيعة جلزورذى الفنية الكاملة ، وفطرته السليمة المنصفة فاقت كل تصور ، فلم يك هناك ما يمكن أن يشنيه بأى حال من الأحوال عن تصوير كل شخصية وفق الواقع الذى اختبره بنفسه ، ولذلك شد ما كان يعنى بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دخائل كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته .

إنى لأخشى أن يكون رأى الخاص الذى أكاشفك به الآن سبباً فى مجافاتك الصواب ، فالموضوع ولا شك بالغ التعقيد .
أشكر لك ما هياه لى خطابك من متعة بالغة .
مع أطيب تمنياتى لنجاح عملك .

توقيع

أيدا جلزوردى

هذا الكتاب

عرض عاجل :

لست أسمى ما تضمه هذه الصفحات عن الكاتب المسرحي الكبير «جلزوردي» بحثاً ، ذلك لأن توفري على دراسته ليس بالقدر الذي يرقى بما كتبه عنه إلى مصاف البحوث التي تتغلغل إلى الأصول وتتشعب منها أو معها إلى الفروع ، وتستقصي العلل وتقيم على أسسها النتائج ، ثم تسوقها جميعاً إلى القارئ في تعمق وفي إفاضة لا محيص منهما لكل باحث ، بل ومن خطل الرأي أن أحاول مثل هذا البحث ، فالمجال في هذا الكتيب لا يتسع بحال للبحوث والدراسات الشاملة ، التي تحيط في عناية بأطراف المواضيع المراد دراستها وتنصيلها ، بعد أن نجوس الباحث خلال دقائقها ، ويتعمق إلى أغوارها . . . وإذن فإن كان لا بد من تسمية ما أنت بصدد قراءته الآن عن «جلزوردي» فهو تعريف متواضع بالكاتب أو هو «عجالة» في أدبه لا أكثر ، وكأية عجالة: أخرى لا بد سيعوزها عمق الدراسات المفصلة واستيفائها ، وإن اقترنت بجلاء الفكرة ويسرها ، وبالبساطة في عرضها وشرحها .

وأنا لا أستحل لنفسي أي فضل فيما سيلمسه القارئ من هذا الجلاء وهذا اليسر ، إذ الفضل كله في هذا للكاتب نفسه ، فليس ثمة شك في أن جلزوردي دائماً مسوق في كتاباته بنزعة تعليمية - إن جاز هذا التعبير - يرى معها أن يقصر أدبه على ما فيه نفع الجمهور وإنارته وتهذيبه ، لا أن

يكتب للذة الذهنية أو العقلية الخالصة ، وليس من الحكمة في شيء ، ما دام هذا هو الهدف الذى يسعى إليه ، ألا يكون جلياً في كتاباته كل الجلاء ، واضحاً كل الوضوح ، بعيداً ما أمكن عن غموض المعنى وتعقيد اللفظ حتى يجدى التعليم الذى ينزع إليه بفطرته ، ويعم النفع الذى يبغيه والذى من أجله أمد المسرح الإنجليزى بعشرات من المسرحيات الناجحة ، تلك المسرحيات التى أقبل الشعب من كافة الطبقات على مشاهدتها ، فكان واجباً على الكاتب إزاء هذه الطبقات أن يكون موقفه من كل منها موقف الرسول الذى يعبر في صدق وأمانة ، عن آمال كل طبقة وأمانها بعد أن يدرس مشكلاتها ويلم بوسائل إصلاحها .

ولما كان الشعب الإنجليزى ككل شعوب الشمال ، متزناً هادئاً لا تعصف به الأهواء ، أمكننا أن نقرر في اطمئنان أن نجاح هذا الكاتب لم يقم على أساس من تعلقه للجماهير وتزلفه لأهوائها وبزعاتها ، إنما لاشتراكه معها في الإحساس والتفكير ، فهو يحس ما تحسه ، وهو يفكر كما تفكر - وإن لم يفض هذا على وجهة نظره الخاصة ورأيه المستقل ، وهو بعد هذا وذاك يخلو إلى نفسه فيروح يصور هذا الإحساس وهذا التفكير تصويراً فنياً رائعاً ، فيه من صدق الواقع ومن الاستجابة لعوامل البيئة التى تحيط به بقدر ما فيه من جمال الفن .

أهمية الكاتب :

ولعل أحداً من كتاب الإنجليز وأدبائهم لم يفد المسرح بعد شكسبير بالقدر الذى أفاده به حلزورذى - إذا استثنينا برناردشو - ولكن في

مقدورنا الآن - وقد عرفنا الدوافع التي يكتب جلزورذى تحت تأثيرها وبإلهام منها - أن نجزم أن مسرحياته لم تعالج إلا ما كان له شعبه وببلاده صلة ما ، ولهذا اقتصر أثرها على المسرح المحلى ، بينما قد تأثر العالم ، دون شك ، بمسرحيات أخرى كالتى كتبها شكسبير مثلاً .

لقد كان جلزورذى فى معظم مسرحياته كالصدى الذى يردد ما تضطرم به جوانح مواطنيه من شتى العواطف ومختلف المشاعر ، ولذلك كان لها شأن أى شأن فيما تيسره للباحث من دراسة نفسية الأمتة الإنجليزية وتفهمها ، ومن أخذ صورة صادقة عن طبائعها بما لها من مساوئ وحسنات ، وبما فيها من نواحي القوة والضعف سواء بسواء ، ومن تسهيل مهمته مؤرخى المستقبل الذين يريدون معرفة حالة البلاد معرفة صحيحة لا زيف فيها فى العصر الذى عاش فيه هذا الكاتب الكبير .

المسرحيات التاريخية :

وأكبر الظن أن هذا يفسر انصراف جلزورذى عن كتابة المسرحيات المنتزعة من حوادث التاريخ القديم كما صنع شكسبير الذى قدم كثيراً منها للمسرح مثل « يوليوس قيصر » و « ريتشارد الثالث » و « هنرى الرابع » و « هنرى الثامن » وغيرها ، فالأول يؤمن بأن التاريخ القديم بحوادثه وأخباره مهما كان صادقاً فنفعه كعامل للتهذيب ليس كبيراً ما دام قد قدم العهد به وأصبح جامداً لا يتأثر بصور الحياة العصرية التى تنبض بكل ما هو جديد ، والرأى عنده أن الإنسان مهما كان اهتمامه بمعرفة أخبار الأوائل وحوادث الماضى ، لا يملك نفسه عند الاطلاع على هذه الحوادث وهذه

الأخبار عن أن يساوره غير قليل من عدم الاكتراث أو الشك أو عدم التصديق ، بل لعل ما يساوره خليط من هذا كله ، ولهذا كان التاريخ قليل الأثر التهديبي على قارئه أو على من يشاهد المسرحيات المنتزعة منه ، وبدهى أن الفرق تافه ، على حد تعبير كاتب إنجليزي كبير ، بين الباطل والصدق العاطل ، ولا عبرة في زعمه للقول الشائع « التاريخ يعيد نفسه » لذلك وجد جلزوردي في مشاكل بلاده الاجتماعية والاقتصادية ما يصرفه عن أن ينبش أغوار التاريخ ويخرج الماضي من أكفانه ، وأمامه الحاضر تعج في أعماقه دنيا زاخرة بالحياة التي تنبض بكل ما هو جديد وبكل ما هو طريف .

القصة الطويلة :

ولقد عالج جلزوردي إلى جانب مسرحياته كتابة القصة الطويلة غير التمثيلية ، بل لقد استهل حياته الأدبية بكتابتها كغيره من الكتاب المعاصرين الذين ساهموا في نهضة المسرح الإنجليزي ، ولقد وفق فيها توفيقاً كبيراً ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال أنه قد طغت عليه نزعته التعليمية في هذه القصص ولذلك جاءت وهي مشوبة قليلاً بالإسهاب في الوصف والإطالة فيما يتببه النصح ، وهو إلى جانب هذا لم يهتم اهتماماً كبيراً بالحبكة القصصية أو العقدة "Plot" حسب تعبير كتاب القصة وهي لا غنى عنها بحال لنجاح القصص ، ولكن عوضه عن هذا ما امتازت به من الأسلوب الذي بلغ الذروة ، ولولا أنه أطال في بعض هذه القصص إلى حد الإفراط كما كان الحال مثلاً فيما كتبه بعنوان : « قصة أسرة فورسايت البطولية » "The Forsyte Saga" لما كان هناك أى مأخذ عليه .

بين الإيجاز والإسهاب :

ولقد يبدو غريباً أن يقع الكاتب في مثل هذا التضارب بين الإيجاز والإسهاب ، فبينما هو في مسرحياته مقتصد صريح ، صادق التعبير ، تنبض كل عبارة منها بالحياة ، وتفصح كل كلمة منها عن خلعة من خلجات النفس ، أو عن معنى من المعاني التي يتمخض عنها الفكر ، إذ هو يميل إلى الإسهاب والشرح فيما سوى هذا من القصص ، ولكن إذا تعمقنا قليلاً في دراسة الدوافع التي كان جلزوردي يكتب دائماً تحت تأثيرها ، بل وبوحى منها ، لوجدنا ما يفسر هذا التضارب « الظاهري » ويوضحه ، بل ولوجدنا ما يبرره ويكاد أن يحتمه ، فما من شك أن جلزوردي ، كمصلح اجتماعي . لم يعالج كتابة المسرحيات أو القصص على أنها مادة للتسلية واللهو بل على أنها وسيلة من وسائل الإصلاح الذي ينشده وسبيلاً إلى إنارة الجمهور ونفعه ، وليس أدلّ على هذا من قصصه ذاتها ، فما من واحدة منها لم يتعرض الكاتب فيها لإحدى مشاكل بلاده الاجتماعية أو الاقتصادية ، فهو يناقشها على ألسنة شخوص قصته ، وهو لا ينتهي دون أن يقترح - تلميحا أو تصريحاً - ما يراه كفيلاً بالإصلاح وإن خالف في هذا رأى الجماهير وخرج على إجماعهم كما كان الحال في مسرحيته الرائعة « السوق » التي وضعها عام ١٩١٤ وسنخرج عليها فيما بعد . . . وبدهى أن كاتباً هذا شأنه لا يدخر وسعاً في سبيل توضيح فكرته وشرحها في إسهاب كلما أتاحت له الفرصة ، وهذا غير ميسور طبعاً في كتابة المسرحيات إذ لا بد من مراعاة الزمن المحدد لعرضها على المسرح ، ولكن الحال يختلف

تماماً عند كتابه القصص غير المسرحية ، فهي غير مقيدة بزمن محدود ، ومن هنا يتضح السبب في إيجازه عند كتابة المسرحيات وإسهابه فيما عداها ، فهو لا يهتم برضا الجمهور قدر اهتمامه بنزعة الإصلاح التي تفعم صدره ، والتي تدفعه إلى أن يسهب في شرح فكرته حتى يطمئن إلى ثبوتها ورسوخها في الأذهان ، وهو في هذا قريب الشبه بالمعلم الذي يخضع في درسه للزمن المحدد له ، فإذا أفسح له في هذا الزمن راح يفضل ما اقتضى ، ويسهب فيما أوجز .

وقد يهم القارئ أن يعلم أنى لن أتناول جزرورذى في هذه العجالة إلا من ناحية التأليف المسرحى وهى الناحية التى تجلى فيها إبداعه الفنى ، والى كشفت لنا عن مدى استجابته لعوامل الوسط الذى يضمه ، والذى كان لقلمه فى تشخيص مشكلاته ، وعلاج هذه المشكلات نصيب ملحوظ وقدر غير قليل .

أسلوب جزرورذى المسرحى :

قد لا يعيننا كثيراً أن نعرف أن جون جزرورذى ولد فى اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس عام ١٨٦٧ ، وأنه انتهى من دراسته الجامعية ثم استعد لحياته العملية عام ١٨٩٠ ، وأنه ظل يمد المسرح الإنجليزى بروائع مسرحياته حتى انتقل إلى رحمة الله فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير عام ١٩٣٣ ، إلا لما تيسره لنا هذه التواريخ من الوقوف على حالة المسرح بإنجلترا فى العهد الذى ولد فيه الكاتب ، والذى امتد به حتى ابتداء إنتاجه الأدبى ؛ وما يتبع هذا من تحديد الأثر الذى كان لمسرحياته على هذا

المسرح ، وقد لا يعيننا أيضاً أن نعرف أنه ولد بمدينة « كومب » بمقاطعة « سيري Surrey » الجميلة بجنوب إنجلترا ، وأنه استهل دراسته بمعهد « هارو » حيث يتعلم أولاد الخاصة من الإنجليز ، وأنه أتم دراسته العالية بالكلية الجديدة بجامعة أكسفورد حيث نال إجازة الحقوق ، إلا من ناحية ما تيسره لنا هذه المعلومات من فهم الدوافع النبيلة التي لم يلوثها العرض والتي دفعته دفعاً إلى أن يصور في مسرحياته شقاء الطبقات الفقيرة في بلاده ، بأسلوب مبتكر أخذ مليء بالحياة ، لأنه منتزع من صميم هذه الحياة ، إذ روعى فيه ألا يخلو من لهجات التخاطب ، أو بتعبير أدق ، من لغات التخاطب المختلفة التي يتكلم بها كل فرد ممن تمثلهم شخصوس مسرحياته ، فالعامل وابن السبيل ونزيل السجون والنبيل ورجل السياسة ورجل الأعمال محدث الغنى والأجنبي عن البلاد ، لكل من هؤلاء في مسرحيات جلزوردي لغته التي يتخاطب بها ولهجته التي تميزه من غيره .

وليس ثمة شك في أن هذه الطريقة التي ابتكرها جلزوردي في الكتابة المسرحية ، والتي لم يقدم عليها من قبله أحد من كتاب المسرح بإنجلترا كان من شأنها أن أفعمت مسرحياته بالحركة والحياة ، إذ قربت بينها وبين طبيعة الأشياء والأحياء ، وجعلت منها صورة حية ناطقة للمسائل التي تعالجها . بيد أن هذا لا ينفي أن قارئ هذه المسرحيات ، إذا كان من المحافظين المتزمطين ، لا بد سيسيء الظن بكفاية الكاتب الأدبية وبراعته ، أو في القليل سينفر من مسرحياته عندما تصدمه هذه العبارات العامة التي قلنا إن جلزوردي كان يلجأ إلى استعمالها في كثير من الأحيان . لا عجزاً عن استعمال اللغة الفصحى ، إنما كي يضع الأمور في موضعها الصحيح ،

وحتى يتيسر له إبراز فكرته خالية من كل صنعة ، وأخيراً كيما يلبس شخصاً مسرحياته الأدوار التي يقومون بها ، والتي تقتضيهم التخاطب بالعامية دون الفصحى ، تبعاً لمقتضيات الأحوال التي تحيط بهم ، أو تبعاً لضرورات البيئة التي يمثلون أنهم نشأوا فيها .

لهذا كله كان أثر هذه المسرحيات على من يشاهدها أقوى انطباعاً وأشد تغلغلاً منه على من يطالعها ، خاصة إذا كان الممثل موهوباً ومندمجاً في الدور الذي يؤديه ، وكان الإخراج موفقاً لا عيب فيه ، فحينئذ يندمج المشاهد فيما يراه من أحداث المسرحية ومناظرها ، وحتى ليستغرق في تتبع هذه الأحداث ، فلا يعود يشعر إلا بالجو الذي أراد أن ينقله المؤلف إليه ، ولا يعود يحس إلا ما أراد أن يتبعه في أعماقه من شتى ضروب المشاعر وألوان الإحساس ، وهذا هو أحد الأهداف الكبرى التي يرمى إليها أو التي يجب أن يرمى إليها كل كاتب مسرحي من كتابة مسرحياته .

المسرح بإنجلترا في القرنين .

التاسع عشر والعشرين :

ولقد أصبح لزاماً علينا بعد إذ علمنا أن جلزوردي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن نلقى ولو نظرة عارضة على المسرح بإنجلترا في أثناء هذا القرن وأن نحاول أخذ فكرة إن تكن عاجلة ولكنها صادقة عن المسرحيات التي اعتمد عليها المسرح آنذاك ، ولن يصعب علينا هذا لما أصاب الكتابة المسرحية طوال الجزء الأكبر من القرن المنصرم من ركود كان من شأنه أن

تقطعت الوشائج وتمزقت الصلات التي تربط المسرح بالأدب ورجاله ، فكان أن اقتصر ما يعرض به على مسرحيات تافهة لا قيمة لها ، تعوزها الفكرة الخصبة والأسلوب السلس والتعبير الفني الصادق ، وكان أن انصرفت الطبقات المثقفة عن الأدب المسرحي بعد أن رأت أنه لم يعد صالحاً لأن تعتمد عليه كعامل من عوامل الإفادة والتهديب والرياضية الفكرية ، وقد ساعد على هذا ما يسرته أشعار بيرون وقصص ديكنز وسكوت النابضة بالحياة لهذه الطبقات من متعة عقلية بالغة .

وقد ظل الحال كذلك حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما ابتدأت مسارح أوروبا جميعاً تتأثر بأدب « إيسن » "Ibsen" الشاعر النرويجي والكاتب المسرحي الذائع الصيت ، فلقد كاد المسرح الإنجليزي قبيل هذا أن يصبح أثراً بعد عين ، لا لقلّة رواد المسرح ، فسيّلهم لم ينقطع عنه بل زاد زيادة كبيرة لما عم البلاد آنئذ من رخاء إثر إعلان قانون حرية التجارة بإنجلترا ، ولا لانعدام الممثلين فقد تضاعف عددهم أو كاد لوفرة المسرحيات المعروضة التي استدعاها هذا الرواج ، ولكن لأن المسرح ظل بالرغم من هذا كله عاجزاً عن أن يساهم بأي نصيب في النهضة الفكرية القائمة ، إذ كانت المسرحيات المعروضة تافهة خالية من كل ذوق فني ، لا تزيد عن أن تكون مجموعة مناظر جوفاء لا معنى لها ولا حياة فيها ، ولا تعبر بحال عن أي شأن من شئون البلاد الاجتماعية ، أو تتمشى مع التطورات التي لا بدت كل ناحية من نواحي الحياة حينذاك ، ولذلك اختفى الكاتب المسرحي « الموهوب » من الميدان ، وهو حجر الزاوية في بناء المسرح ، وأصبح الممثل الأول هو عماد هذا المسرح ، بل هو كل

شئ فيه ، وعلى قدر احتياله وتملقه للجماهير قام رواج مسرحه دون أى اعتبار لقيمة المسرحيات التى تقدم لهذه الجماهير ، إذ قنعت بأن يكون المسرح أداة للتسلية واللهو ، بدل أن يكون محراباً لتقديس الفن ، ومكاناً للتهذيب والإفادة واللذة العقلية ، وبذلك تعطلت رسالة المسرح الحقيقية . ولعل أغرب ما فى الأمر أن هذا الشلل الذى أصاب المسرح وقع فى فترة كانت الحياة تندفق فى أثنائها من كل جانب ، فقد كانت البلاد بصدد انقلاب شامل فى نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وكان العلم قد ابتدأ يناصب العقائد السائدة الخاطئة والخرافات العجائزية العدا ، وكانت النفوس تغلى كالمرجل ضد نظام الطبقات الجائر ؛ وكان لابد من التعبير عن كل هذا بشئى ضروب الإفصاح والتعبير ، وكان لابد أن تكون المسرحية أولى ما توجه إليه عناية المشتغلين بالأدب كأداة لهذا التعبير ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وظل المسرح طويلاً مستغرقاً فى سباته العميق ، وظلت المسرحيات التى تعرض به خالية من الحياة ، حتى قبض الله له ولها نعمة مختارة من كبار أدباء الإنجليز الذين تأثروا بأدب « أبسن » وطريقته المبتكرة ، وترسموا خطاه ، وكان على رأس هؤلاء جميعاً برناردشو وجلز ورذى ، فهض المسرح على أيديهم هضة رائعة موفقة ظلت تبهر الأنظار حتى قبيل الحرب الكبرى الثانية ، وكان جلزوردي قد توفاه الله قبل هذا ببضع سنين كما سبق أن ذكرنا .

إبسن والمسرح الإنجليزى

وأروع ما يمتاز به إبسن أنه حاول فى مسرحياته تصوير الطبيعة

البشرية على إطلاقها ومن مختلف جوانبها ، وإنه تعمق إلى أغوار النفس الإنسانية ثم تناولها بالوصف في أسلوب الكاتب الموهوب والشاعر الملهم ، دون أن يصدده عن هذا عائق ما ، ودون أن يتعصب لقومية معينة أو لغة خاصة ، أو أن يتشيع لمذهب من المذاهب ، وأكبر الظن أن هذا هو السبب الذي من أجله تأثرت مسارح أوربا كلها بفن « إبسن » وما فيه من جدة وجمال . وككل مسارح أوربا لم يدع المسرح بإنجلترا هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده ، فتشبث بها ، وأفاد منها ولكن إلى حد ، فقد ظل هذا المسرح يحس فراغاً كبيراً لا يسده سوى كاتب إنجليزي موهوب ، إذ ثمة آفاق فسيحة من الآراء والنظريات الاجتماعية كانت قد انجابت عنها الحجب وتفتحت لها عيون الشعب الإنجليزي في القرن الماضي ، وثمة مشاكل ضخمة أثارها هذه الآراء ، وظل المسرح طويلاً عاجزاً عن أن يكون أداة للإفصاح عن هذه الآراء ، وظلت رسالته لهذه معطلة حتى جاء جلزوردي كما ذكرنا آنفاً ، بعد أن سبقه « برناردشو » ببضع سنين قليلة ، فكان لهما مع نخبة من الكتاب المسرحيين المعاصرين أمثال « ملن » و « إدوين » وغيرهما فضل إحياء المسرح الإنجليزي بعد أن تبنى إلى الدمار أو كاد ، وكان أن تم « خلق » المسرحية الإنجليزية الصميمة التي تتمتع الآن بمميزات الخاصة وتحفظ بمعالمها واستقلالها .

بين برناردشو وجلزوردي :

وليس ثمة شك أن جلزوردي قد تأثر بأدب إبسن أكثر مما تأثر به برناردشو ، وإن كان هذا الأخير قد أخذ عن إبسن معظم طرائقه في الفن

المسرحى ، ذلك لأن جلزورذى وإيسن مشتركان فى الطبيعة السمحة الكريمة ، وفى صفات النفس الإنسانية التى لا ترضخ لأية قيود عنصرية أو جنسية ، وليس معنى هذا أن برناردشو كان محروماً من هذا الاتجاه الإنسانى الفسيح الأفق ، ومن هذا المفهوم المتسامى العالى فى الأدب ، أو أنه كان يجهل مهمة الفن المسرحى الأصيلة ، التى تقوم على أساس من التغلغل فى أغوار النفس البشرية ، لاستكشاف كنهها وإلقاء الضوء على خفاياها .

والواقع أن برناردشو كان يعرف أن المسرحية عندما تعالج أية مشكلة من مشكلات الحياة أو البيئة التى يعيش فيها الكاتب ، لزم أن يكون هناك تجاوب تام بين هذه المعالجة وهذه المهمة الكبيرة ، مهمة دراسة النفس الإنسانية ممثلة فى شخوص المسرحية . . بل هو لم يغفل أى جانب من هذا المفهوم فى الصلة القائمة بين إصلاح المجتمع ودراسة هذه النفس ، ولكنه للأسف ، كان فى محاولته هذا الإصلاح كالمربى الذى يحمل عصاً غليظة يلهب بها ظهور تلاميذه الضعاف ، وأبدانهم الهزيلة ، بالرغم من أنهم فى مسيس الحاجة إلى حذبه وعطفه وحنانه .

ولذلك راح « شو » يسخر بالمجتمع فى غير رفق ، ويركب الناس على اختلاف طوائفهم ومهنهم بالدعاية ، فى أسلوب لاذع عنيف ، لا يشفق على ضعف الضعفاء منهم ، ولا يرثى لسقطة الساقطين ، بالرغم من محاولته أن ينبه الأذهان إلى مايعانيه الفقراء المحرومون ، وما يقاسيه الكادحون المرهقون ، فهو حتى فى هذه المحاولات الجادة القوية فى سبيل إصلاح هؤلاء وأولئك جميعاً ورفع مستوى معيشتهم ، وإنصافهم من ظلم المجتمع

الجائر لهم ، ونبذه إياهم لم يكن يعفيهم من تهكمه القاسى وسخريته الموجهة .

أما جلزورذى الإنسان السمع الكريم ، فكان يفيض عطفاً وحناناً ، يشارك المنكوبين فى آلامهم ، ويعمل جاهداً فى سبيل إقالة عثراتهم ، دون أن يساوره مجرد التفكير فى أن يسخر من ضعف الضعيف أو عجز العاجز ، بل يأخذ بيد كل منهما ، ويرشدهما سواء السبيل ، فى رقة ورفق ، حتى لكأنه من فرط هذه الرقة وهذا الرفق ، قد صنع خالقه ، جل وعلا ، من خالص عبير الزهر ، ومصنّى تغريد الطير .

وكان يؤمن أن له رسالة يحملها إلى الناس جميعا ، هى رسالة الحب والغفران ، فكان يؤديها دائماً وهو مغتبط سعيد ، مدفوعاً إلى هذا بفطرته الطيبة السليمة التى لا يشوبها تكلف ، أو يفسدها ادعاء .

ولقد نعت الكاتب الإنجليزى الكبير « يوسف كونراد » صديقه جون جلزورذى بأنه « رسول الأخلاق الإنسانى » ، مقررّاً فى إكبار أنه كواحد من دعاة الأخلاق ، لا بد أن تكون له بشارة تبهج الصدور ، يقوم بالدعوة إليها والعمل على نشرها ، وأنه لزام عليه أن يتجه دائماً بخطابه ونصيحته لا للعقل أو العاطفة ، إنما للروح ذاتها ، داخل محرابها ، وفى أعماق أغوارها .

وفى تعليق للكاتب والناقد الفنى الإنجليزى الكبير « ريشارد شيرش » على إنتاج برناردشو المسرحى والأدبى ، راح يصف علاقته بجمهرة النظارة والقراء فقال : « لقد سخر « برناردشو » بالجمهور الذى رفعه إلى ذروة الشهرة ، وركبه بالمزاح ، هذا المزاح الذى كان له لدغ السياط ، ولفه فى أكفان

باردة من التهكم الإيرلندى المرير ، إذ كان يتهمة دائماً بالقناعة المستخذية ، وبالعاطفة البليدة الغبية ، كما كان يشهر بنقائصه ، ويحط من شأن تقاليده وعاداته الموروثة ، في غير رفق أو تقدير من جانبه لضعف الطبيعة البشرية وعدم كمالها . . . »

والرأى عندى أن برناردشو كان في تهكمه اللاذع وسخريته الجارحة للناس ، هو الجزار وسكين الجزار معاً ، أو هو الجلاذ والنطع والسيف جميعاً ، ولذلك فقد كان في هذه الناحية بالذات على نقیض جلزورذى ، الذى كان بعطفه وحنانه بلسماً يشفى جراح القلوب المكلومة ، أو ملكاً كريماً يربت بيده العانية الرحيمة ، على أفئدة الحزانى والضعفاء بل وطريدى المجتمع والإنسانية معاً .

وأخيراً فقد كان كل من جلزورذى ومعاصره برناردشو ، طبيباً للشعب ، معالجاً لأدوائه ، غير أن الأول كان الطبيب الحانى الرقيق الفؤاد ، الذى يعمل جاهداً كيما يقضى على الداء ، دون أن يحس المريض ألماً أو عناء ، أما الثانى فكان الجراح القاسى ، الذى يشهر مبضعه فى وجه المريض ، ويروح يتر عضوه المعطوب دون أن يخدره ، كيما يننى ألمه أو فى القليل كيما يخففه ، بل لعله كان فى بعض الأحيان ينفجر ضاحكاً ، بينما المريض المسكين يئن ويتوجع ويطلق من فرط الألم صرخات مدويات .

بين سومرست موم وجلزورذى

« سومرست موم » الكاتب المعاصر الكبير ، الذى يبدو

أنه لم تعوزه الصفات التي تؤهله لأن تكون حياته امتداداً لحياة « برناردشو » العنيفة لم يُعَفَّ قراء الإنجليزية من سخريته المتطرفة وهجائه الشديد ، وتعرضه لسقطات الساقطين من البشر ، دون حذر وفي غير مبالاة .

وبالرغم من هذا فقد قرن اسم « سومرست موم » في يوم من الأيام باسم معاصره « جلزوردي » عندما لجأ الأول إلى الإنتاج المسرحي ، مهتدياً بهدى الثاني ، ومحاولا الاقتداء به ، في بساطته ووقاره وقوته الأخلاقية الدافعة .

ولكن طبيعة « سومرست » العنيفة ، تغلبت عليه ، وجرفته معها ، في بحرها الخضم ، وتيارها العباب ، فانهازت به إلى معسكر شيخ الهجائن الساخرين برناردشو ، فغدا عضواً بارزاً من أعضاء مدرسته في التهكم والسخرية والهجاء .

ولما مات « شو » تقدم « سومرست » الصفوف ، فأصبح له القدر المعلن في هذا الميدان ، ميدان السخرية والهجاء ، بعد أن خلا له من فارسه المخوار ، فراح يذرعه ذرعاً من أقصاه إلى أقصاه ، حتى بز المبتدئ معلمه ، والتلميذ أستاذه ، أو كاد ، ذلك لأن سومرست لم يدخر وسعاً في سبيل التحلل من كافة روابط الأدب الدمث الرفيق ، والعاطفة الحانية المرفقة ، التي كان يفخر بأنها تصله بوشائج القربى ، في الفكر والعاطفة ، بأكبر دعاة الأدب الأخلاقيين « جون جلزوردي » وظل كذلك بضع سنين من تاريخ حياته الأدبية غير القصيرة وفي هذه المدة كتب بعض المسرحيات التي لا بأس بها ، ولكن شد ما يحز في النفس أن يشذ سومرست بعد هذا عن كل من أستاذه الأول والثاني ، فالمعلوم عن كليهما ، أنهما كانا ،

طوال حياتهما ، من أشد خصوم العنصرية والتفريق بين الأجناس ، لايمانهما بوحدة البشرية ، كما أنهما كانا يهاجمان في عنف كل ضروب الاستعمار السياسى وغير السياسى ، أما سومرست ، فقد خص ، مع الأسف الشديد ، الأجناس الملونة ، والشعوب المتخلفة ، بالنصيب الأوفى من هجومه الجارح ، ومن تهكمه اللاذع المرير .

وظيفة الفن المسرحى:

وليس ثمة خلاف فى أن وظيفة الفن المسرحى لا تتعدى أن تكون إحدى ثلاث :

- ١ - دراسة النفس الإنسانية والإفصاح عن خلجاتها ونخايطها .
 - ٢ - معالجة مشاكل الحاضر ، أو مشاكل الحياة عامة ، دون التقيد بإقليم معين أو بشعب خاص .
 - ٣ - عرض ونقض العيوب القومية ، والتقاليد غير المرغوب فيها ، أو التى لا تتفق وروح العصر ، تمهيداً للقضاء عليها أو إصلاحها .
- ولن نتخطى الواقع إذا قلنا إن السواد الأعظم من كتاب المسرح الإنجليزى الحديث لم يهتموا بدراسة النفس الإنسانية والتعمق إلى أغوارها ، قدر اهتمامهم بمعالجة مشاكل بلادهم الاجتماعية والاقتصادية ، وما يتصل بها من عادات وتقاليد ، وهم غير ملومين ، فليس ثمة عيب أو تثريب فى أن يتأثر الكاتب بالوسط الذى يعيش فيه ، وأن يستجيب لصيحات الشعب التى تأخذه من كل جانب ، والتى يجب أن يتردد صداها فى أعماق نفسه ، فيصورها فى مسرحياته تصويراً فنياً تفعمه الحياة ، بل هو يلام إذا أخفق

فى أن يكون رسول وطنه ، مادامت البشرية كوحدة قد اختارت غيره لتأدية رسالتها .

فهل أخفق جلزورذى فى تأدية تلك الرسالة أو وفق ؟

وهل استجاب لصيحات الشعب أو لم يستجب ؟

وهل أبدع فى التصوير والتعبير أو لم يبدع ؟

الرأى عندى أنه وفق واستجاب وأبدع . . ولكن ثمة سؤال حائر بجانب هذا ، لا يفتأ يتردد على الشفاه ، تارة فى تهكم ، وتارة فى رجاء وإشفاق : هل قدر أن يكون الخلود من نصيب مسرحياته ؟ . . والإجابة عن هذا التساؤل لا تخلو من الصعوبة ، فهى فى حاجة إلى مقدمات لم نسق منها ما يصلح لأن يكون أساساً للفصل فى هذا الشأن ، وهى فى حاجة أيضاً إلى دراسة مطولة وافية ، وتحليل يرتكز على أصول علمية ، وكل هذا غير ميسور فى مثل هذه العجالة التى لا تزيد عن أن تكون مجرد محاولة متواضعة لدراسة مسرحياته .

اجتماعيات :

بالرغم من نشأة جلزورذى الأرستقراطية ، والثروة الكبيرة التى انحدرت إليه عن جده الرابع ، والتى ضاعفها والده فوفرت للحفيد المدلل أسباب الحياة الناعمة المليئة بالترف ، فقد عنى منذ شبابه الباكر بمشاكل بلاده الاجتماعية ، واهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الأسباب التى يشكو منها الشعب ، والوسائل التى يجب اتخاذها لتخفيف متاعبه وآلامه ، بل والقضاء عليها ، إذ كان يؤمن إيماناً عميقاً بوحدة الإنسانية ، ويعبس الرابطة القوية

التي تربطه بكافة طوائفها إحساساً صادقاً ، وليس أدل على هذا من السطور التالية التي كتبها مستر ج. م. هاريس أحد زملاء الكاتب المسرحي الكبير بجامعة أكسفورد ، فقد قال في معرض تسجيله لذكرياته عن حياتهما الجامعية : « . . والظاهرة الفريدة التي ميزت جلزوردي عن جماعتنا في أثناء إقامته معنا بلندن كانت فيما يديه من الولع الشديد بارتياح أفقر أحياء العاصمة حينما يرخي الليل سدوله ، مصفياً إلى أحاديث القوم ، مرحباً بكل فرصة تتيح له زيارة مساكنهم الفقيرة ، التي يخيم عليها الفقر والذلة والشقاء ، وأكبر الظن أن جلزوردي كان في تلك الأثناء يستجمع المادة اللازمة لتكوين فكرة صحيحة عن الإنسانية في مختلف مظاهرها ، بيد أنه لم يبد أية إشارة إلى الوسيلة التي ينوي أن يستخدمها للإفادة من هذه الفكرة وهذه المعرفة . » .

فلما انتهى جلزوردي من حياته الجامعية ، وتفرغ لحياته العملية ، ركز كل جهوده لخدمة هذه الطوائف الفقيرة التي لمس بنفسه متاعبها ، وشاهد ضروب الشقاء والحرمان التي تعانيها ، وسمع أنات الألم الصادرة من قلوب حطمتها الجوع والفقر ، فراح يعرض مآسى الشعب ، ويصورها في مسرحياته تصويراً ينبض بالحياة لأنه منتزع من صميم الحياة ، ويقترح طرق الإصلاح ، فلما حالفه التوفيق وبزغ نجمه ، وأصبح اسمه على كل لسان لم تلهه نشوة النجاح والتوفيق عن الهدف الإنساني الأسمى الذي انبرى للدفاع عنه ، وكلما مرت الأيام زاد إيمانه بالرسالة النبيلة التي كرس حياته لها ، والتي راح يدعو إليها في غير كلل أو هن أو ملال ، ومما يعزز هذا الرأي ما كتبه ه. ا. فيشر ، عقب اجتماعه بالمؤلف في أثناء تمثيل

مسرّحته الرائعة «العدالة» التي قام كثير من مجده الأدبي على ما لاقتة من نجاح منقطع النظير ، فقد قال : « لقد أحسست وهو يخاطبني بما تعج به نفسه الكبيرة من أنبل المشاعر التي يحركها نزوعه المضطرب لكل ما يتصل بالإنسانية بسبب من الأسباب ، وكم كان رائعاً حقاً أن أرى في وضوح أن جلزوردي لم يتأثر إطلاقاً بنجاح قصته ، بل لقد تعمد في تواضع جم ألا يسترسل في أى حديث يتعلق بها ، وبالرغم مما كان يضيفه عليه جمهور النظارة من ضروب الإكبار واللوان التكريم ، فقد كان بعيداً كل البعد عن غرور المؤلفين ، وفي لهجة متزنة هادئة يفعمها التواضع ، ولكنها تضطرب بحرارة الإيمان واليقين ، راح يتحدث عن المساويء الاجتماعية وأخطاء المجتمع ، حتى إن المنصت إليه ليعبس إحساساً عميقاً ، بأن الرجل قد آلى على نفسه ألا يدخر وسعاً في سبيل القضاء على هذه المساويء وهذه الأخطاء ، ولم يكن يصعب على الناظر إليه أن يلمح مع بريق عينيه ما انطوت عليه نفسه من حنان وإنصاف وإصرار . . . » .

اقتصاديات:

وبدهى أن جلزوردي وقد نصب نفسه لهذه المهمة الاجتماعية الخطيرة ، وكرس قلمه للدعوة إلى الإصلاح ، وجد أنه لزاماً عليه أن يدرس الحالة الاقتصادية وكل ما يتصل بها ، إذ لا محيص عن هذه الدراسة لمن ينشد الإصلاح الحقيقي ، لهذا وجه عناية كبيرة إلى معظم مشاكل بلاده الاقتصادية ، فبسطها وراح يدرسها على أسس اقتصادية سليمة ، فكان في كل هذا مثال العالم المدقق الذي لا يميل مع هوى

النفس ، ولا يصرفه الغرض عما يؤمن بأنه حق ، بيد أنه بجانب صفة العالم التي حافظ دائماً على أمانته لها ، كان إنساناً . . إنساناً مستكملاً لكل ما تفرضه الإنسانية على من ينتسب إليها من الاشتراك مع الناس في العواطف : والاندماج معهم في التفكير ، والإنصات إلى آنين البائسين منهم والرثاء لهم ، ثم الجهاد في سبيلهم في يقين المؤمنين بوحدة البشرية التي يجب ألا تشقى إحدى طبقاتها ، وتسعد الأخرى على حسابها .

وقد ساعدت العقلية القانونية المنظمة التي اكتسبها الكاتب بحكم دراسته للقانون بجامعة أكسفورد ، وروح الإنصاف التي فطر عليها ، على أن يوفق بين عواطفه الإنسانية التي كان من المحتمل أن تغرى أضراجه من المتحمسين للإصلاح على الدعوة إلى التمرد ضد أنظمة المجتمع الجائرة ، وبين احترامه للعرف وللأوضاع القائمة التي لا يمكن القضاء عليها دفعة واحدة ، لما يترتب على هذا من إخلال بالقانون وخروج عليه ، ومن هدر لبعض الحقوق المكتسبة ، لذلك راح جازوردي يتلمس الثغرات التي يمكن أن يلج منها للوصول إلى أهدافه الإصلاحية الكبرى دون أن يصطدم صراحة بقوانين بلاده وشرائعها ، فإذا أضفنا إلى هذا ما حصل عليه الكاتب من خبرة عملية كبيرة بالشئون الاقتصادية في أثناء عمله كمستشار في المسائل القانونية لإحدى الشركات الكبرى ، التي كان يملكها أحد أفراد أسرته ، وما يسره له هذا العمل من الاحتكاك بأصحاب العمل ومرءوسيه من العمال ، والوقوف على أسباب النزاع بين الطرفين وبين أصحاب العمل ومنافسيهم بالشركات الأخرى ، أمكننا أن نقدر قيمة المعلومات الاقتصادية الثمينة التي وفرتها هذه الفرصة للكاتب

الكبير ، فأفادته أكبر فائدة ، ومكنته من إقامة دعوته إلى الإصلاح على أسس سليمة غير متهورة ، ولذلك لا نبالغ إذا قررنا أن خدمة جلزوردي للمجتمع البريطاني قد لا تقل بحال عن خدمته للأدب عامة .

أخلاقيات :

جاء ضمن الرسالة الكريمة التي أرسلتها مسز « ايدا جلزوردي » أرملة الكاتب الكبير إلى واضع هذا الكتاب ، في معرض الدفاع عما عمد إليه زوجها من تصوير بعض الشخصيات بطريقة تثير سخط القارئ ونفوره ما يلي : « إن الكاتب الذي يتجاهل وجود الأوغاد في كل زمان ومكان ، ليتعذر عليه أن يصطنع من كتاباته مرآة تصلح لأن تعكس لنا الطبيعة البشرية على حقيقتها . . » ثم شفعتها بقولها : « . . لم يك هناك ما يثنيه » تعني جلزوردي « عن تصوير كل شخصية وفق الواقع الذي اختبره بنفسه ، ولذلك شد ما كان يعنى بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دخيلة كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته . . . » . . . وإن المطلع على هذا يكاد يظن أن جلزوردي كان في كتاباته ممن يعتنقون مذهب « الريالزم » ، أو الأدب الواقعي ، الذي كان يتزعمه إلى عهد قريب الكاتب « زولا » ولكن بالرغم من صحة ما تقرره مسز جلزوردي عن زوجها الكبير ، فالنتيجة التي يصل إليها كل من يدرس أدب هذا الكاتب عن مذهبه الأدبي ، تثبت له أنه وكتّاب « الريالزم » على طرفي نقيض ، إذ الواقع الذي لامراء فيه أن جلزوردي كان في كل كتاباته من الأخلاقيين الذين ينشدون المثل الأعلى في كل ما يكتبون . . فبماذا نعلل

هذا ١٩ الأمر جد بسيط ، فأنت إذ تقرأ لأحد من كتاب الأدب الواقعي لابد ستصدمك صراحته المكشوفة إن كنت ممن يتخرجون ، بل وستحس حتماً النفرة والاستحياء لجرأته البالغة في التعبير عن آرائه ، خصوصاً ما يتصل منها بالغريزة الجنسية بالرغم مما يحتاج به أنصار هذا المذهب لتبرير مسلكهم ، من القول بضرورة المصارحة والعلانية كوسيلة لإصلاح البيئة ولل قضاء على عوامل الفساد التي تضج منها ، أما كتابات جلزوردي فتدكي في نفس قارئها أنبل المشاعر والأحاسيس بل وتسمو بروحه إلى سماء من المثل العليا ، ولكن ليس معنى هذا أن جلزوردي « كان يتجاهل وجود الأوغاد في كل زمان ومكان » . . أو أنه « لم يعن بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن دنخيلة كل شخص يكتب عنه وتفاصيل حياته » . . كلا ، لقد كان على النقيض من هذا كله . . كان دائب البحث والدرس والتقصي ، لا تعوزه الشجاعة كي يبرز الصورة التي كوّنها لنفسه عن أية شخصية من الشخصيات ، ولا يتردد في التصريح بما يؤمن أنه حق ، وكان في كل هذا أميناً للمجتمع الذي يكتب عنه ويكتب له ، ولكنه بجانب ذلك كان أميناً لنفسه ، أميناً لمثله العليا ، أميناً لعقيدته التي تتلخص في أن الشر إذا صوّر كما هو كان في تصويره إغراء وتغريز ، وأن الأثيم إذا كتب عنه دون أن يقدم الكاتب بين تلايف أسلوبه ، ما يشعر القارئ بنفوره منه وازدراؤه لإثمة ، كانت جناية الكاتب على المجتمع لا تعدلها إلا غفلته .

ولهذا فنحن لا نبرئ جلزوردي من المبالغة. في تصوير بعض شخوص مسرحياته ، وإن كنا نغتفرها له في سبيل الهدف السامي الذي كان ينشده ، دون شك ، وكذلك العاطفة النبيلة التي كان يكتب نوحى منها .

تصنيف :

قلنا إن هذه العجالة لا تزيد عن أن تكون مجرد محاولة متواضعة لدراسة مسرحيات جلزورذى ، ولابد لهذه المحاولة من تلخيص بعض هذه المسرحيات ، ولكن ليس في نيتنا أن نلخص سوى القليل منها ، إذ المجال لا يتسع لتلخيصها جميعاً ، وقد أربت في عددها على بضع عشرات ، وليس في نيتنا كذلك أن نعرضها على القارئ مرتبة حسب تواريخ وضعها وإخراجها ولا حسب شهرتها وذيوعتها وما لاقتها من نجاح ، إنما سنحاول تصنيفها فرادى أو في مجموعات ، عمدتها وحدة الموضوع الذى تعالجه كل مجموعة ، ووحدة الفكرة التى تسوقها ، أو بمعنى أكثر دقة ، سنصنفها على أساس الناحية المعينة التى اختارها المؤلف من بين نواحي الحياة المختلفة ، وأوجه النشاط بها ، كيما ينقل عنها في كل مجموعة صورة صادقة ، لا زيف يفسدها ، ولا طلاء يحجبها ، وسنسقط منها ما كانت الفكرة فيها حائرة مترددة ، أو ما نظن نحن أن الفكرة فيها حائرة مترددة .

حرب الطبقات والبطالة :

لعل جلزورذى أول من اصطنع من المسرح بإجلترا أداة لتصوير الخطر الداهم ، الذى لابد أن ينجم فيما لو أهملت طبقة العامة من الشعب ، دون الإصغاء إلى مطالبها الاجتماعية والاقتصادية ، والاستجابة لها ، والمسايرة إلى إنصافها ، ورفع الحيف عنها ، بعد أن أعد الأذهان للاهتمام بدعوته ، والاستماع للإصغاء إليها ، بمسرحيته الإنسانية الرائعة

« الصندوق الفضى » التى مثلت فى عام ١٩٠٦ بمسرح « البلاط الملكى » بلندن ، والتى أجاد فيها تصوير ما يعانىة الفقراء والمعوزون من ضروب الشقاء والحُرمان .

ثم عالج مشكلة « البطالة » من الوجهتين الاقتصادية والخلقية فى مسرحيتين إحداهما بعنوان « الصراع » أو « الكفاح » وهى من أجود مسرحياته ، وقد مثلت عام ١٩٠٩ بمسرح « دوق أف يورك » والثانية بعنوان « الساذج » التى مثلت فى عام ١٩١٢ بمسرح « الملكية » بلندن . . وفى عام ١٩١٧ ظهرت مسرحية « الأساسات » فوفق فيها إلى رفع الستار عن العلة فى عدم التجاء هذه الطبقة الفقيرة المغبونة بإنجلترا إلى التمرد ، فى حين أنه لم تنج أية دولة أوربية أخرى من تألبها على الحكم القائم ، الأمر الذى أدى إلى قيام الثورات بهذه الدول وتغيير نظام الحكم فى معظمها ، ورب معترض يقول إن فقر هذه الطائفة كان من شأنه أن يباعد بينها وبين التفكير فى غير ما يسهل لها سبل الحصول على قوتها وتغيير أمر معاشها ، ومادام الأمر كذلك فلم يك ثمة مجال أمامها للتفكير فى الثورة والتألب ، وقد يشير هذا المعترض ، للتدليل على صحة هذا الرأى ، إلى ما يقرره التاريخ من أن ثورة فرنسا مثلا ، لم تقم فى العهد الذى كان الفرنسيون يقاسون فيه أشد حالات العوز والإذلال والظنك ، وهو عهد لويس الخامس عشر ، المفعم بالمساوىء والشُرور ، إنما قامت فى عهد تلاه ، إذا قورن بالعهد الأول ، كان كالنعيم إلى الجحيم ، وهو عهد الملك الطيب ، لويس السادس عشر ووزيره المصلح « نكر » الإخصائى المالى الكبير .

ولكن هذا لا يعنى أن الثورة لم تقم فى العهد الأول لأن الفرنسيين كانوا لا يفكرون فى شىء قط سوى أمر معاشهم ، إنما لأن أذهانهم لم تكن قد نضجت بعد وفتحت لفهم معنى الظلم ، والتفريق بينه وبين ضده ، ولذلك لم يكن يحسون فى الظلم المرهق الذى يقاسونه « ظلما » إذ كانوا يتوهمون أنه ليس ثمة لون آخر للحياة غير هذا اللون القاتم السواد ، الذى تعودوا عليه ، فلما استناروا بكتابة « مونتسكييه » و « روسو » وأضرابهما من دعاة الحرية ، وتعلموا من « فلتير » الثائر الساخر أن يستخفوا بكل رئاسة وسلطان ، وعلموا من كتابة هؤلاء جميعاً أن هناك معانى للحياة أسمى مما يعرفونه عنها ، اكتسبوا قوة التمييز والتفريق بين الظلم والحق ، فتيسر لهم أن يحسوا الظلم الذى هم فيه ، والذى كانوا يعانونه دون إدراك ، وإذ ذاك قامت الثورة الفرنسية التى حرقت الأخضر واليابس .

وما دام قد تقرر هذا فمما يثير الدهشة حقاً أن يشذ الشعب الإنجليزى وحده عن هذه القاعدة . . صحيح أنه قد سبق كافة شعوب أوربا إلى التمتع بحرياته والقضاء على استبداد ملوكه ، عندما توصل للحصول على ميثاق « الماجنا كارتا » منذ أكثر من سبعة قرون ، ولكن هذا لا ينفى أن حالة هذه الطبقة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية كانت ، دون شك ، سيئة غاية السوء ، ومع ذلك ، لم يفكروا فى الثورة ، فترى ما الذى عصمهم من هذا الزلل ١ ٢ . .

١ - أهى أعصاب شعوب الشمال السليمة الهادئة ؟ !

٢ - أم هو إثثار من جانب هذه الطبقة للمصلحة العامة على مصلحتها

الخاصة ١ ٢ !

٣ - أم هو إحساس العامة بأن الطبقة الحاكمة بالبلاد ومعها النبلاء والأغنياء جميعاً يفكرون ويعملون جاهدين لحل مشاكلهم بروح يفعمها الإنصاف والعطف معاً ؟ !

يجيب جلزورذى فى مسرحيته الآنفة الذكر عن هذه الأسئلة جميعاً بالاجاب ، ولكنه يجعل للإحساس المشترك بين عامة الشعب وطبقة الخاصة بالبلاد المقام الأول .

مشكلة العمال :

إن النجاح الكبير الذى لاقته مسرحية « الكفاح » الآنفة الذكر ، والترحيب البالغ الذى قوبلت به لم يأتيا عفواً ، فقد طرق فيها الكاتب بحجاب موضوع « البطالة » مشكلة اقتصادية من أدق المشاكل التى كانت تشغل أذهان مواطنيه ، بل وأذهان الأوروبيين عامة إذ ذاك ، والتى تدور حول الخلاف المستحكم بين أصحاب العمل وبين العمال ، وتحاول تنظيم العلاقات والروابط التى تصل الطرفين ، والتوفيق بينهما .

ولقد كانت أوربا آنئذ تتأرجح بين مذهبين اقتصاديين متضادين : الأول قديم عريق له ما لكل قديم من مناعة ورسوخ ، والآخر حديث ، لم يستكمل بعد نموه ، ولم تستو أو تتحدد معالمه ، ولكنه ككل حديث له روعة تستهوى النفوس الطامحة ، وله طرافة تجذب إليها الأنصار ، ممن يؤمنون بهذا الجديد على أنه الحق ، وأنه الطريق الذى يؤدى إلى ما يجب اعتباره نظاماً اقتصادياً مثالياً ، يقوم على أساس من العدالة والمساواة بين

الأفراد ، ومن سينصفهم هذا الجديد ، فيرفع عنهم ظلماً يصطلون به ، ويعيد إليهم حقاً يعتقدونه .

الأول هو مذهب حرية العمل أو التصرف الذى يطلقون عليه بالفرنسية لفظ "Laissez Faire" والذى يدعو إليه « الفيزيوكرات » وهم القائلون بإطلاق الحرية الفردية ، وعدم الحد منها بأى حال من الأحوال ، ذلك لأن رقى الأفراد ، على حد ما يزعمه أصحاب هذا المذهب ، لا يتم إلا بإطلاق أقصى ما يمكن من الحرية لهؤلاء الأفراد ، حتى ينمى كل منهم مواهبه ، ويحصل من وجوه النفع على ما يوصله إليه استعداداته ، وتوفره له كفايته ، بدون تدخل أو معاونة من الحكومة ، مستبدلين على صحة هذا المذهب بمبدأين أفرطوا في تقديرهما حتى قالوا إن ناموس الحياة قائم عليهما ، وبالغوا في تقديسهما والتكبير لهما ، حتى لكأنهما الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو كأنهما التنزيل من لدن عزيز حكيم ، هما مبدأ : تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، بالرغم من أنه ليس هناك ثمة صلة تربط بين هذين المبدأين وبين علم الاقتصاد ، من قريب أو من بعيد .

والثانى هو مذهب الاشتراكية أو الملكية العامة ، ويرى أنصاره أن مثل هذه الحياة ، التى يقوم ناموسها على مبدأى تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، لا تنطبق إلا على حياة الغابات والأدغال ، حيث يعيش الوحش الكاسر لا الإنسان الذى ينشد الكمال ، والذى لا يتيسر له بحال ، لطبعه المذنب وإحساسه بأن لا غنى له عن التعاون مع الجماعة ، إلا أن ينتظر مساعدة غيره ، وليس فى مقدوره الانفراد بتدبير شئون نفسه ، وتحصيل النفع لها ،

إلا إذا كفلت الحكومة هذه المساعدة ، فمن واجبها الإشراف على أعمال الأفراد ، وتوجيه هممهم إلى ما يحقق النفع لهم ، والسعى في التسوية بينهم في منافع الحياة ، حتى لا يستأثر القوى بالخيرات دون الضعيف . وبين مذهب الاشتراكية ، ممثلاً في العمال ، ومذهب الانفرادية أو حرية التصرف ، ممثلاً في أصحاب العمل ، وغيرهم من الرأسماليين ، قام الصراع عنيفاً جباراً ، لا هوادة فيه ولا مهادنة ، فكانت قصة جلزوردي عن هذا الصراع صورة صادقة نابضة بالحياة ، أبان فيها الكاتب أن كلا من المذهبين ضار في صورته المتطرفة ، وإن لم يخف عطفه البالغ على طائفة العمال ، إذ رأى عنده أنه لا مفر من التدخل في شئون أصحاب العمل تخفيفاً لويلات العمال وهم الجانب الضعيف ، وحمايتهم من استبداد أصحاب العمل بهم ، على أن يتم هذا كله بتوسط وإشراف اتحادات العمال ونقاباتهم ، ضماناً للحريات من أن تستبد بها الحكومات ، فيما لو حلت هي محل هذه الاتحادات في عملها .

الانقلاب الصناعي

وفي مسرحيته « اللعبة القاصمة » التي وضعها عام ١٩١٨ ، و « منفيون » التي مثلت بمسرح « وندهام » بلندن عام ١٩٢٩ ، تناول جلزوردي بطريقته المبتكرة ما كان لهذا الانقلاب من تغيير شامل في شئون البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فصور بأسلوبه البارع صراع الفناء الذي استعراؤه بين المصنع والمزرعة ، وما جاء في أعقاب هذا من طبقة الأثرياء « محدثي النعمة » الذين أثروا فجأة فلم يتيسر لهم أن يوفقوا بين نشأتهم

الوضيعة ، وما يتطلبه المركز الاجتماعى الجديد الذى رفعهم إليه هذا الزراء من ثقافة خاصة ومن آداب اجتماعية معينة ، يتعذر عليهم استيعابها ، أو اكتسابها ، بين عشية وضحاها ، بيد أن جلزورذى كعهده فى الاحتفاظ بصفة العالم الذى لا يميل مع هوى النفس ، ولا يصرفه الغرض عن تمحيص الأمور ، على ضوء الحقيقة المجردة ، لم يغبن هذه الطائفة بل أنصفها بما ساقه من دلائل تقديره وإكباره لصفات الإقدام والجلد والاعتداد التى توسلت بها هذه الطبقة فى شق طريقها إلى الجاه ، والتى أقامت على أساسها ما وصلت إليه من مجد وثراء ، ولكنه بجانب ذلك أظهر عطفاً دونه كل عطف ، على طبقة السادة ذوى المجد التالد والخلق الكريم ، مُلاك الأراضى الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، فامتلات هاتان المسرحيتان بعبارات الرثاء والإشفاق للحال السيئة الأليمة التى وصلوا إليها ، أو التى كانوا على وشك الوصول إليها ، لعجزهم وقصورهم عن اللحاق بهذه الطبقة الجديدة ، فى مضمار التنافس الاقتصادى الرهيب ، إذ كان يخشى القضاء على التقاليد العريقة ، التى تفخر بها إنجلترا ، والتى تمثلها هذه الطبقة الأصيلة أصدق وأحسن تمثيل .

المدينة والفطرة :

ولقد وضع « جلزورذى » مسرحية قصيرة بعنوان « الحلم الصغير » وأعقبها بأخرى ذات فصل واحد بعنوان « الشمس » تكلم فيهما بأسلوب رائع ، هو مزيج من الشعر المنثور ، الذى تفعمه العاطفة فى أرق صورها ، والنثر البليغ الذى ينوء بما يحمله من معنى ، عن الحياة الطليقة بين أحضان

الطبيعة الساحرة ، بجبالها الجبارة المتشامخة ، ووديانها الوادعة الحاملة ، وبأزهارها الجميلة وطيورها الصداحة المغردة ، وما تضيفه هذه الحياة على النفس الإنسانية من الطمأنينة والسلام ، ومن الإدراك الصحيح لشتى ألوان الجمال والتسامي فوق أحقاد البشر وصغائرهم ، ثم تناول بالدرس حياة المدن بما فيها من مختلف ضروب الحضارة ، وما أنتجه العقل البشري من مخترعات كشفت عن جبروت هذا العقل ، وجعلته أكثر علماً وتقديراً لما يزر به هذا الكون من كنوز ، وخلقت أمامه آفاقاً مترامية فسيحة من المعرفة والرجاء .

والمطلع على ما كتبه جلزورذى ينتهى إلى اليقين بأن هذا الكاتب كان يؤمن بالفطرة ، ولا يحدد المدنية أو يتنكر لها ، بل هو مؤمن بمزايا الاثنين ، أى بمزايا الحياة المتحضرة وحياة الفطرة معاً ، ويرى أن الحياة فى وضعها الحالى لا تستقيم إلا بالتوفيق بينهما ، فليس من الحكمة فى شىء أن نحارب سنة التطور ، ممثلة فى الحضارات المتعاقبة ، فنذهب إلى مثل ما ذهب إليه « جان جاك روسو » وأضرابه من دعاة الحياة الفطرية الأولى ، الذين بالغوا فى الاستخفاف بالمدنية البشرية والحط من شأنها ، وذلك لأن التطور إنما هو من سنن الطبيعة ذاتها ، التى يدعون إلى إعلاء شأنها . . ولكنه يرى بجانب هذا أن المبالغة فى تقدير هذه المدنية - وهى غراس التطور - على حساب الحياة الطليقة غير المعقدة ، بين أحضان الطبيعة ، حيث يتيسر للمرء أن يحرر نفسه من أغلال المجتمع ، ولو إلى حين ، ويترك نفسه على سجيته ، إنما هو دليل الخواء الروحى ، والفراغ العاطفى ، والنزعة المادية ، التى يجب الحد من سلطانها ، لصالح المجتمع نفسه .

الحياة الزوجية

ولقد تناول جلزورذى الحياة الزوجية بالدراسة فبحث غريزة المرأة بحثاً علمياً قائماً على أصول علم النفس الحديث فى ثلاث قصص من أروع ما كتب هى : « الأنسة جوى » وقد مثلت بمسرح سافوى عام ١٩٠٧ ، و « الشاردة » ، وقد مثلت بمسرح البلاط الملكى عام ١٩١٣ ، والأخيرة وهى « الاستعراض » مثلت بمسرح « سانت مارتن » عام ١٩٢٣ ، وخلاصة رآية فى هذه المسألة الحيوية الخطيرة ، أن الحياة الزوجية يجب ألا تخلو فى كل أدوارها من التفاهم العاطفى بين الزوجين ، وأن مركز الزوج الاجتماعى مهما كبر ، وثرأه مهما عظم ، لا يعوضان المرأة بحال عما تنزع إليه بفطرتها من التحليق فى أجواء الخيال ، فالمرأة فى رآيه حاملة أبداً ، يستحوذ الفن على مشاعرها ، سواء أكان هذا الفن ضرباً من الموسيقى أو الأدب أو غيرهما من مختلف ألوانه ، إذ هى بطبيعة تكويناها النفسى والعقلى قد اتسعت لديها منطقة الوجدان ، حتى طغت على ما عداها من مناطق الفكر ، وبالقدر الذى ييسر للزوج أن يستهوى به هذا الوجدان ، ويشبع به هذا الخيال ، يكون توفيقه فى الاستحواذ على مشاعر زوجته ، وامتلاك عواطفها ولذلك فإن كل استخفاف من جانب الرجل بهذه الطبيعة الشاعرة الحساسة ، عن عمد أو عن غير عمد ، من شأنه أن يحول دون تأجيج عاطفة حبها له بل وقد يخمدنها إلى الأبد ، والنتيجة المحتومة لهذا فى رأى الكاتب هى فشل هذا الزواج وما يعقب هذا الفشل من انفصال الزوج واستقلال كل منهما بحياته الخاصة دون إعلان الطلاق ، أو مع إعلانه رسمياً

الزواج غير المتكافئ

ولقد عالج «جلزورذى» فكرة الزواج غير المتكافئ فى قصتين ، الأولى « الابن الأكبر» وقد مثلت بلندن عام ١٩١٢ ، والثانية « النوافذ» مثلت بمسرح البلاط الملكى بلندن فى عام ١٩٢٢ .

وبالرغم من العشر السنوات الطويلة المليئة بالجسام من أحداث الحياة التى مرت بين وضع القصتين ، وبالرغم مما طرأ على التقاليد والعادات بإنجلترا ، بل وبالعالم أجمع عقب الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨) من تغيير وصل إلى الصميم ، فقد احتفظ جلزورذى برأيه فى هذا الموضوع دون أدنى تحوير أو تعديل ، وهذا الرأى وإن بدت عليه ، لدى النظرة العارضة غير المتعمقة ، مسحة الجمود وعدم التمشى مع روح التطور ، فهو فى حقيقته غير هذا ، أجل ، فجلزورذى لا يؤمن بصلاحية الزواج الذى يقوم على أساس من نشوة الحب الأولى ، أو قل على أساس من نشوة الإعجاب الأولى ، عند النظرة الأولى المزعومة ، ذلك لأن هذه النشوة غالباً ما تكون وليدة نزوة عابرة ، لا تلبث أن تزول . ولذلك فإن جلزورذى يدعو فى جرأة المؤمن بدعوته ، إلى ضرورة مراعاة التكافؤ الفكرى والعاطفى والاجتماعى بين الزوجين ، ولكنه لا يصر على ضرورة التكافؤ الاجتماعى ، إذا ما تيسر توفر الأولين بدونه ، أعنى التكافؤ الفكرى والعاطفى ، بيد أن الرأى عنده أنه قلما يتيسر هذا .

العنصرية والأجناس الملونة

عندما قال « كبلنج » الشاعر الإنجليزي عبارته الماثورة : « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » . . . اهتزت أعطاف الكثيرين ، من دعاة العنصرية ، وعُباد القوة ، ومبتدعي فكرة الأجناس الملونة ، الذين استهوتهم آراء « نيتشة » المتطرفة عن فلسفة القوة ، وبقاء الأصلح ، والسبرمان المرتقب ، سليل الحضارات المتعاقبة ، وغراس المدينيات الصاعدة ، والتطور الدائم المستمر .

وأكبر الظن أن عبارة كبلنج ما كانت لتلاقى ما لاقته من اهتمام غير قليل ، لو أنها لم تصدر عن شاعر يجب أن يؤمن بأن رسالة الشعر في كل زمان ومكان ، إنما هي في الواقع رسالة الإنسانية جمعاء ، وصاحبها لهذا وإن حق له أن يشيد بذكر وطنه ويتغنى بمآثره ، فمن واجبه ألا يعرض بغيره من الأوطان ، أو يتعصب لجنس من الأجناس ، بيد أنه من خطئ الرأي حقاً أن يذهب التطرف بالكاتب أو الشاعر إلى الحد الذي يجحد عنده « العاطفة الوطنية » ويحارب فكرة القومية ، كما هو الحال مثلاً مع « ويلز » الكاتب الإنجليزي الكبير ، وغيره ممن يدعون إلى مذهب « الشعوبية العالمية » ذلك لأن هذه الدعوة ، بالرغم مما فيها من رغبة في التسامى بالبشرية ، فهي لا تستقيم مع أوضاع الطبيعة ذاتها ، فكما أن الطبيعة قد خصت كل فرد « بشخصية » مستقلة لها مميزاتها ومعالمها ، كذلك خصت كل شعب بصفات معينة ، تكونت له من مجموعها « قومية » مستقلة لها مميزاتها ومعالمها ، ولكن هؤلاء الأفراد وهذه الشعوب يشتركون

جميعاً ، دون شك ، في العاطفة الإنسانية المتحدة ، التي يتساوى لديها الآرى بغير الآرى ، ويلتقى عندها الشرق بالغرب .

وجلزورذى الكاتب الإنسانى الكبير من معتنقى هذا الرأى الأخير ، فهو وإن تغنى بجمال الطبيعة ببلاده وسحرها ، يرى أن لهذه الطبيعة ألواناً أخرى من الجمال - لعلها أكثر سحراً وأشد فتنة - في بقاع أخرى من أرض الله الواسعة ، وهو وإن آمن بعظمة شعبه ، فهو لا يرضى أن توصم البشرية بالعقم عن إنتاج مثل هذا الشعب ، فالإنسان ، في رأيه ، أتى وجد وحيثما كان ، نزاع بفطرته إلى الكمال ، ومن ورائه الطبيعة تمدّه بالقوة الدافعة ، وتنفت في روحه من حيويته المبدعة وشبابها المتجدد .

وأنت إذ تقرأ مسرحيته التي تحمل عنوان « ولاء » والتي مثلت بمسرح سانت مارتن في عام ١٩٢٢ ونظيرتها « الرجل الصغير » لابد ستلمس بنفسك روح الكاتب السمحة الكريمة ، التي تفيض رحمة بالناس جميعاً ، دون تشيع لقومية من القوميات ، أو تعصب لدين من الأديان ، فهو يربت بيده في رفق وحنان على الضعيف المنبوذ الذي لا ذنب له سوى انحداره عن والدين يعتنقان ديناً غير دين الجماعة التي يعيش بينها ، وكما خلد شكسبير بمسرحيته « تاجر البندقية » شخصية « شيلوك » الإسرائيلى كعنوان للأثرة والقسوة والحرص ، فقد خلد جلزورذى بمسرحيته « ولاء » شخصية « فرديناند » الموسوى كعنوان لتسامح القوى وعفو القادر ، وإن لم ينف ما هو معروف عن جنسه من الحرص والتقتير .

السعادة وملكوته

ولجأ زوردي مذهب طريف عن السعادة يمكن استخلاصه مما هو ماثوث بين تضاعيف معظم مسرحياته ، وإن تجلى أكثر وضوحاً في ثلاث منها ، سبق الإشارة إليها جميعاً وهي « الشاردة » و « الحلم الصغير » و « الشمس » ومضمون رأيه بهذا الصدد أنه لا يفهم سر السعادة وينعم بها إلا كل من دق حسه ، وسمت مشاعره ، فراحت تعج في أعماقه دنيا زاخرة بكل ما هو جميل ونبيلى . . . مثل هذا الإنسان تصطفيه السعادة ، فتنشئ ملكوتها في قلبه ، حيث تغمره أشعة أحلامها الذهبية ، وتحويه موسيقى ضحكاتها الفضية ، وتملأ كأسه من رحيق أملها العريض ورجائها الرحيب ، وعلى هذا الأساس لا يكون للسعادة وجود في ذاتها ، بل هي تنبعث من أعماق القلب الإنسانى ، فهو منبعها المتدفق ، ومعينها الذى لا ينضب .

صحيح أن هذا القلب - وهو موطن السعادة - ملك مشاع لكل البشر ، ولكن لشد ما يختلف قلبان : قلب صحراوى قاحل ، لا يعرف عن الحياة إلا ما فيها من مادة وعرض ، وقلب آخر أسمى وأنبلى ، يغنى بجمهر الحياة وما فيها من فن ، يفهم الجمال ويتذوقه ، ويلاحقه أينما وجد وحيثما كان ، وهو سيجد هذا الجمال حتماً ، مادام هو الغرض المقصود ، والهدف المنشود ، بل هو إذا لم يجده خلقه لنفسه خلقاً ، وابتدعه ابتداءً ، وليس هذا صعب التحقيق ، ولا هو عزيز المنال ، فلكل شىء فى الوجود وجهان : أحدهما جميل ، وجماله مستمد من جمال الشعور الذى يحسه

ويسعى إليه ، ويضفى عليه من فنتته وبهائه ، فالألم والشقاء والموت ، لكل منها وجه جميل ، وهل السعادة إلا لون من ألوان الجمال ، الذى ينشده مثل هذا القلب ، ويبتدعه لنفسه ابتداءً ؟ !

ولشد ما تتجلى روعة العاطفة الكبيرة فى هذه العبارة التالية ، التى قالتها أم لوحيدها ، وهى تبعث به إلى الحرب : « أوى ولدى ! . . . سيان عندى أن تعود إلىّ والفوز يكلل هامتك ، أو أن تخر صريعاً بالميدان فى سبيل نصره أمتك ، فإن عدت إلىّ حياً ، سعدت بك عاطفة حنانى عليك ، وإن اختطفك الموت منى ، وانتزعك كىما يكلل بك هامته ، سعدت بك عاطفة فخرى بك ، فى كلتا الحاليتين يا ولدى ستضفى علىّ السعادة فى لون من ألوانها ! . . . »

الفضيلة وفلسفة القوة

شن « نيتشة » المفكر الألمانى الذى أصيب بالجنون المطبق فى أيامه الأخيرة ، حرباً شعواء لا هواده فيها ضد من سبقوه جميعاً من قادة الفكر ودعاة الأخلاق ، بل لم يتورع عن مهاجمة أستاذه الفيلسوف الألمانى « شوبنهاور » شيخ مدرسة المتشائمين السفسطائيين الذى نادى بأن : « الشقاء والألم ملازمان للبشر ، وأن الخير والشر قد ركبا فى فطرة الإنسان ، وليس ثمة من سبيل يودى إلى ما فيه صلاح الإنسانية ، ونصرة الخير ، إلا إذا جاء عن طريق الفضيلة وقهر البدن والعفاف » .

ولقد أراد نيتشة أن ينشئ فلسفة جديدة ، أساسها تقديس القوة فى مختلف صورها ، وهدم العقائد السائدة عن الفضيلة والدين ، حتى

لقد قال في هذا الصدد : « إن مبدأ قهر الغرائز وحياة الزهد والفضيلة ، الذى بشر به دعاة الضعف بمن يدعونهم الناس فلاسفة ومفكرين إنما هو ضرب من المرض لا دعوة إلى الفضيلة الحققة كما يحاولون إفهام الناس ، ذلك لأن تشجيع الإنسان على محاربة غرائزه إنما هو تشجيع على الانحطاط دون شك ، فالغريزة ، فى رأى ، والفضيلة صنوان لا يفترقان » .

أما جلزورذى ، وهو من أكبر الدعاة الأخلاقيين ، فلم تخل معظم مسرحياته وكتاباتة عن رأيه فى الفضيلة يسوقه عرضاً أو عمداً للإفادة والإرشاد ، ولكنه يكاد أن يكون قد خصص ثلاثاً من أهم مسرحياته لهذا الغرض وهى : « الغابة » و « إنجليزى عتيق » وقد مثلتا بالتعاقب عامى ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ بمسرح سانت مارتن ، والثالثة « السقيفة » وقد مثلت فى عام ١٩٢٩ بمسرح الفوديفيل بلندن .

وهذا الرأى يتفق تماماً مع مذهب أفلاطون عن العدالة أو الاعتدال ، كما لخصه واضح مقدمة جمهورية أفلاطون فى ترجمتها العربية ، والذى جاء كما يلى : « يرى أفلاطون أن العدالة فى الدولة هى أن يلتزم كل فرد بالعمل الذى يجيده ، وأن يتناول منها قدر ما يعطيها ، فالرجل العادل فى الدولة هو الرجل الذى ينزل فى منصبه المعد له ، وفيه يبذل وسعه ليعطى الدولة قدر ما يأخذ منها » . . . ويستطرد أفلاطون قائلاً « إن دولة كهذه هى فى الحق جماعة متسقة اتساقاً موسيقياً لأن كل عنصر من عناصرها يجب أن يكون فى مكانه ، يقوم بعمله كما يقدم الموسيقى بعمله فى فرقته الموسيقية ، أما إذا خرج الناس كل من مكانه الخاص به ،

فأصبح الجندى حاكماً ، والعامل جندياً ، اختلط الحابل بالنابل ،
وتصدعت أركان الدولة ، وتفككت عراها ، وفسد قوامها ، وانحلت
وقضى عليها ، وإذن فالعدالة هي التعاون الفعال .

«والعدالة في الفرد هي التعاون الفعال - على المنوال المتقدم - بين
العناصر المختلفة التي تتألف منها طبيعة الإنسان ، فكل إنسان عالم من
الرغبات والشهوات والآراء والعواطف ، فإذا اتسقت هذه الظواهر النفسية
وتعاونت ظهر صاحبها رجلاً عادلاً فاضلاً ، وإذا اختل التوازن بينها
وسيطرت العاطفة على سائر القوى ، أو نزل منها العقل مجرداً منزل الملك
المستبد ، تصدعت أركان الشخصية وسرى فيها الفساد ، وإذن فالعدالة
هي النظام والجمال في النفس ، إنها للنفس بمقام الصحة للجسد .

وهكذا يرى جلزوردي أن الفضيلة ليست في القوة التي تسيطر عليها
الغريزة ، وهذا رأى نيتشة ، كما أنها ليست في الاستخذاء ، وبهذا القوة
ظهرياً ، وتجاهل حقيقة الغرائز ، إنما هي في قوة الروح المتسقة غير الباغية
التي هذبها الفن وصقلتها المعرفة والأخلاق .

العاطفة الدينية

وفي كثير من التهكم اللاذع والسخرية الجريئة ، هاجم جلزوردي
المتزمتين المرائين من رجال الدين ، ومن يشايعونهم من طوائف الشعب
المختلفة «الذين يرون القذى في عيون الآخرين ، ولا يرون الخشبة التي
تطل على الآخرين من عين كل منهم» ، وراح يرسم لهم في براعة رجل
الفن الموهوب صورة أخاذة تنبض بالحياة عن جوهر الديانة المسيحية

التي يؤمن بها ، والتي تقوم في الواقع ، بالرغم من أنف هؤلاء المتزمتين الجامدين ، على أسس المحبة المطلقة ، التي لا تحدّها نهاية ولا تنهى عند حد ، والتي لا يشوبها حسد أو أثرة أو رياء ، ولا ترضى بما هو دون التضحية إذا لزمّت التضحية ، ولا تعرف دستوراً للتعامل بين الناس جميعاً لا يتركز على التسامح وإنكار الذات ، فالحبة في رأى جلزوردي هي جماع ما في الكون من حق وجمال وجلال ، بل هي الحق أو هي الله سبحانه . . .

وجلزوردي إلى جانب هذا يكاد يدعو فيما يكتبه إلى ما يدعو إليه المتصوفون الذين يعبدون الله عز وجل أصدق وأصح عبادة ، ويقدمون اسمه تبارك وتعالى في كل ما يرونه ويحسونه من جمال مرائي الطبيعة ، وبهاء صورها الفاتنة الأخاذة ، ويجدون متعات روحية دائمة التجدد في تأمل مشاهدتها الساحرة المختلفة ، فصوت الله ينسكب إلى أذانهم انسكاباً مع تغريد الطير ، وخرير النهر ، وحفيف الشجر ، وجلاله يتبدى رائعاً بديعاً مع مشرق الشمس ومغربها ، ورحمته السابغة تتجلى فيما ينساب مع أشعة القمر الفضية الهادئة من معاني الدعة والحنان والاطمئنان .

وقد ضمن هذا كله مسرحيته الإنسانية الرائعة « قليل من الحب » التي مثلت في عام ١٩١٥ بمسرح « كنجزواي » وكذلك الفصل الأخير من مسرحيته بعنوان « هروب » وقد مثلت عام ١٩١٦ بمسرح السفراء . بجانب هذا لم يخل كثير من مسرحيات هذا الكاتب من عبارات النقد التهكمي البارع ، يرسلها بأسلوب مهذب في هذا المعنى من حين

لآخر ، تلميحاً أو تصريحاً ، فلا تخطئ الهدف الذى يرمى إليه . . . ولعل من أبرع ضروب ذلك النقد هذه الأفكوهة التى ساقها الكاتب فى إحدى مسرحياته عن صبي صغير أراد أن يتخلص من عملة مزيفة استعصى عليه التعامل بها ، فتصدق بها على أحد الفقراء !! . . . فلما اتصل خبر هذا التصرف الأثيم بجدة الصبي لم يتورع عن إظهار رضائه التام عنه ، بل وراح يكشف فى غير حياء عن استحسانه وتشجيعه لهذه الجريمة الأخلاقية المستورة بقوله : « يالشد ذكاء حفيدي !! » .

ومن الظواهر التى يجب إثباتها فى غير قليل من الإعجاب أن كتابات جلزورذى فيما له صلة بهذه النزعة التصوفية المتسامية ، وما يتبعها من التأملات الروحية المستنيرة ، التى لا يشوبها جهل أو تزمت ، والتى من شأنها أن تكشف أمام أصحابها آفاقاً مترامية فسيحة من أنبل العواطف وأسمى الأحاسيس ، لم يقتصر أثرها على من يشايعون الكاتب فى رأيه ، ومن يؤمنون بما يؤمن به ، بل لقد شمل هذا الأثر غيرهم ممن يعتنقون مبادئ مخالفة بل مضادة ، فهذا « ه . ج . ويلز » الكاتب الإنجليزى الكبير ، وهو معروف بنزعة الإلحادية المتطرفة ، وعقيدته المادية ، يكتب إلى جلزورذى ، عندما أهدى إليه الأخير قصته « فيلا روبين » التى وضعها فى عام ١٩٠٠ ، معترفاً بالمتعة الروحية ، أو بتعبير أقرب إلى تفكير « ويلز » ، معترفاً بالمتعة العقلية ، التى أحسها فى أثناء مطالعته للقصة المذكورة .

وهناك نص كتاب ويلز إلى الكاتب الكبير :

عزيزى جلزورذى

لشد ما كنت كريماً ، إذ أرسلت إلى كتابك ، الذى طالعتَه
فى متعة بالغة ، وجذل موفور ، بالرغم من اختلافنا فى رأى ،
ومن عدم إيمانى بما كتبت ، فأنا رجل ممعن فى الشك ، لا أؤمن
بإلّهِ ، ولا أعترف بملك أوبقومية من القوميات .

بجانب هذا فأنا أنكر ما تدعوه أنت « عاطفة فنية » فهى لم
تصادفتنى فى حياتى حتى أتعرف إليها وأعرفها ، ومن ثمة أعترف
بها ، ولكن قد تكون العلة فى إنكارى لهذه العاطفة ، ما أحسه
فى نفسى من عدم استكمالى للعناصر الأولى التى من شأنها أن تيسر
لى سبل فهمها .

الرأى عندى أن « رجل الفن » ما هو إلا واحد من الكثيرين ،
من رجال العمل ، مع فارق طفيف هو أن الأول بحكم العمل
الذى يزاوله ، قد اتسع مجال تصوره ، وامتد أفق تخيله .

ويلز

نقد فى مخطوط

فى زياره لى إلى بریطانيا فى العام المنصرم تفضل المسئولون بالمجلس البريطانى فى لندن فمنحونى تصريحاً لزيارة جامعة برمنجهام ، حيث أودعت كافة المخطوطات والرسائل المتعلقة بجون جلزورذى ، وقد زرت هذه الجامعة واطلعت على هذا التراث القيم ، كما اطلعت بالمتحف البريطانى بلندن على مخطوط « قصة أسرة فورسايت البطولية » فى بضعة مجلدات كبيرة ، وقد لاحظت أن كل هذه المخطوطات أوجلها مكتوبة بخط يد الكاتب الكبير وليست بالآلة الكاتبة .

وفى هذه الأثناء سمعت عن وجود بعض رسائل لهذا الكاتب بجامعة أدنبرا باسكوتلندا ، فزرتها ، ومن هناك حصلت على نسخة فوتوغرافية ، فى تسع صفحات ، من نقد لم أجده من قبل فيما نشرعنه من نقد وتعليقات . وكاتب هذا المخطوط الصغير هو ناقد مسرحى ، يدعى د . ه . ولیمصن ، عاصر كلا من جلزورذى وجورج برناردشو والكاتب المسرحى الفرنسى « يوجين بريو » "Eugène Brioux" (١٨٥٨ - ١٩٣٢) الذى كان يستهدف فى مسرحياته إصلاح المجتمع ، من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، كما كان يفعل معاصراه الإنجليزيان .

وقد رأيت إتماماً للفائدة أن أسوق للقارئ هذا النقد إذ هو يدعم معظم النتائج التى وصلت إليها عن هذا الكاتب الكبير ، خاصة فيما يتعلق بروائع مسرحياته التى وضعها قبل الحرب العالمية الأولى .

وهالك نصه :

يزعم الكثيرون أن صوت البوق الرنان المبشر بمجتمع إنسانى ينتفى منه الجور والحقد والحرمان راح يدوى من جديد ، عندما برز جون جلزورذى ككاتب مسرحى ، فمن المؤكد حقاً أن لمسرحيات جلزورذى أثراً شاملاً أكبر مما لأية مسرحيات ظهرت بهذه البلاد فى الأعوام الأخيرة .

إن حوار برنارد شو فى مسرحياته يفتن الألباب ويشرح الصدور ، ولكن ما يكتبه جلزورذى يترك فى النفس أثراً قوياً لا يمحي ، فبرنارد شو يؤثر أن يكون فكهاً سريع المخاطر حتى ولو فقدت المسرحية حبكتها وترباطها ، بينما يؤثر جلزورذى الجدد ويصر عليه ، ومع ذلك فهذا الجدد من جانب جلزورذى لا يخلف وهماً أو إخفاقاً ، كما هو الحال مع بحث مفرط فى ماديته أو عظة مطولة مملة ، ذلك لأن الرجل فنان وكاتب مسرحى كما أنه أيضاً مصلح اجتماعى .

وهذه ، فى حد ذاتها ، ميزة نادرة ، فشو مثلاً كاتب مسرحى ومصلح اجتماعى ، ولكن ما من واحدة من مسرحياته المتألقة تترك ذلك الأثر الاجتماعى القوى الذى يحسه المرء حين مشاهدته لأية من روائع جلزورذى مثل « العدالة - Justice » و « الكفاح - Strife » و « الصندوق الفضى "The Silver Box" » .

إن بريويو يعالج المشكلات الاجتماعية ويعرضها علينا على خشبة المسرح ، ولكنها فى الواقع لا تصلح للعرض إلا فى قاعات المحاضرات ، أما مشكلات جلزورذى فيمكن مناقشتها بالمنازل فى حجرات الاستقبال .

ياجلزورذى من فنان ممتاز وصانع مبدع ! إن مسرحية الصندوق

الفضي نموذج لروعة التكوين ، ففيها يسوق الكاتب قصة عن رجل يسرق ويعاقب ، وآخر يسرق ولا يعاقب : فهناك قانون للفقراء وآخر للأغنياء .. ولكن أهى نشرة وعظ وإرشاد ؟ أهى خطبة سمجة طنانة من خطب ماربل آرتش ؟ . . . لا ، إنها ليست كذلك . . . إنها قصة إنسانية رائعة ، تنبض بالحياة من البداية حتى النهاية ، وتتميز ببراعة مذهلة ، فمع خلوها التام من المصادقات وغيرها من الاحتمالات المفتعلة نجد أن ابناً لرجل ثرى ، وآخر هو بعل لخدمة بأحد المنازل يسرقان بدافع الحقد ، وهما مخموران ، كيس نقود ، وتسير المسرحية فى بساطة ويسر ، فأشخاصها بعيدون عن كل كلفة أو جمود ، والأحداث اللاحقة تأتى فى الأعقاب ، كنتائج محتومة ، لأحداث سابقة !

وإذ كان والد الشاب سخياً فقد تيسر له أن يصرف بسخاء لينقذ ابنه من مغبة جريمته ، وقد أنقذه فعلاً ، بينما قبض على الرجل الفقير وفى حيازته الأشياء المسروقة ، فزج به إلى السجن ، وقد تم كل هذا بطريقة طبيعية خالية من كل كلفة أو تصنع !

وكان الظلم واضحاً حتى لقد قال والد الشاب لابنه : « الرأى عندى أن سلوكك لا يمكن تبريره على الإطلاق . . . إنه - إنه سلوك إجرامى . . . أظن أنه لو كان أحد الفقراء هو الذى ارتكب فعلتك هذه كان سيلاقى أى عطف ؟ » . . . (وهذا بالضبط ما يدفع المرء إلى التأمل . . . ومع ذلك فالمسرحية كاملة متقنة لا تشوبها شائبة ، فهى مفصلة للمسرح فى مبناها ، وممتعة كقضية فى سياقها ومعناها ، من البداية إلى النهاية) . . .

وينتخم الكاتب هذه المسرحية بملاحظة تدعو للتأمل ، إذ عندما

يصدر الحكم ضد جونز ، المتهم الفقير ، ويوشك أن يسدل الستار ، يصيح قائلاً : « أتسمون هذه عدالة ؟ . . . وماذا عن الآخر ؟ . . . لقد سكر ! - لقد استولى على كيس النقود ! ولكن . . . ولكن (فى صرخة مكتومة) إنه المال . . . ماله هو الذى أطلق سراحه . . . هيه . . . عدالة ! . . » وعاد جلزورذى مرة أخرى إلى هذا الموضوع فى مسرحية تحمل هذا اللفظ كعنوان لها ، ولكنه عالج فيها طريقتنا فى معالجة المذنبين ، لا العدالة المجردة .

فى هذه المسرحية يعمد شاب يدعى فولدر إلى تزوير شيك على مصرف ، مدفوعاً بعاطفة قوية - إنقاذ امرأة من زوج شديد القسوة - فيقبض عليه ويلقى به فى السجن . . . وهنا نراه مقبوضاً عليه ، ونسمعه خلال محاكمته ، ونشاهده فى السجن ، ونعرف مصيره . بيد أن هذا كله يتضاءل ويتلاشى أمام منظر الشاب فى حبسه الانفرادى ، بصورة تنطبع فى أذهاننا عنه ، ولا تفتأ تراود مخيلاتنا ، وهذا هو ما أراده الكاتب .

إنه لأمر عاды أن يستمتع المشاهد بمسرحية ما ، ولكنه أمر جليل أن ينصرف من المسرح وهو يقول : « أليس الحبس الانفرادى شيئاً بشعاً يدعو للتقزز ؟ ! » .

هنا تتجلى روعة جلزورذى : مصلح السجون ، الرجل صاحب المعرفة والنظريات الاجتماعية التى يفرضها بقوة ، عن طريق المسرح ، فى سبيل المصلحة العامة .

« القصة ، فى ذاتها ، جيدة المبنى ، خالية من التكلف فيما يتعلق بالفكرة التى تعالجها ، ولكنها كمجرد مسرحية للمسرح ، لن

يقرر لها البقاء طويلاً ، فموضوعها تعوزه الخاصية المسرحية .
 هذا الضرب من النقد لا مناص من توجيهه إلى أولئك الذين يستخدمون
 المسرح كوسيلة لرفع المظالم ، والتخلص من المساوئ ، وذلك لأن الموضوع
 كثيراً ما يكون ذا متعة عابرة ، كما أنه قد يكون فضفاضاً في التقسيم
 المسرحي ، أما جلزوردي فله ميزة أصيلة ثابتة هي غزوفه التام عن
 الإغراق في الحركة أو الكلام .

إنه ما من أحد يقف ليشجب الحبس الانفرادي كأنه يتوقع أن
 يقول المستمعون : « اسمعوا ! اسمعوا واهتفوا ! » (كما يفعلون عند سماعهم
 عبارات حماسية من مسرحيات عاطفية معروضة بقاعة للمحاضرات
 والحفلات الموسيقية) ذلك لأن قصة جلزوردي تتفتح بالتدرج لأذهان
 المشاهدين ، وهم يرون الفساد يدب في مفاصلها ويسرى في أحشائها
 دون سرف في التوكيد ، فجميع شخوص المسرحية يؤدون أدوارهم التمثيلية
 كما لو كانوا يؤدونها في واقع الحياة ، وهكذا تترك مسرحية العدالة في
 نفوس المشاهدين الانطباع الذي ينشده الكاتب المسرحي والمصلح الاجتماعي .

* * *

ومسرحية « الكفاح » هي قصة اجتماعية عصرية ، تعالج في أصالة
 فنية ، واحداً من أهم شئون الساعة ، وقد سبق أن شاهدنا ضروباً من
 الكفاح أو النضال على خشبة المسرح في مسرحيات كثيرة ، ولكنها في
 العادة لا تخدم إلا أهدافاً ثانوية لتدعيم المسرحية فقط ، فالوغد مثلاً
 يقتل بأيدي العمال المضربين ، أو أن بطل المسرحية يحاول إظهار شجاعته ،
 أو أي شيء مصاغ على هذا النحو .

أما جلزورذى فالأمر معه جد مختلف ، ذلك لأنه يجعلنا نشاهد العمال المضربين بينما يركز اهتمامنا على الزعيمين - زعيم العمال ورئيس مجلس إدارة الشركة - وهكذا يقدم لنا مسرحية متكاملة متقنة ، لا تحتاج إلى عون أو زخرف من المتع الدخيلة المألوفة ، كأن يقحم المؤلف زعيمين من الطراز المعتاد ، ثم يدفع أحدهما إلى أن يطأطئ الرأس أمام الآخر . والواقع أنه إذا تصادم رجلان عنيدان هذه الأيام فى نزاع بمؤسسة صناعية ، فالعاقبة لابد ستؤدى بالجميع إلى الدمار : ذلك لأن زعيم العمال لن يتراجع ، وكذلك الحال مع رئيس مجلس إدارة الشركة الذى يقول : « تراجع مرة واحدة أمام العمال ، وعندئذ لن يقف تراجعك عند حد ! » .

ويسأل ويكلىن ، وهو أحد المديرين ، رئيس مجلس الإدارة قائلاً :
 « أتجعل من هذا الأمر مسألة مبدأ راسخ حيوى ؟ »
 فيومئى رئيس مجلس الإدارة برأسه موافقاً .

هذه الإيماءة تثير الإعجاب ، فهى تنفى التردد والمراجعة ، وكلاهما من صفات الضعفاء ، أما هذا الرئيس فهو رجل قوى شديد المراس ، ليس من شيمه التردد والتكرار !

صحيح أن قصة « الكفاح » كمجرد مسرحية مكرسة للمسرح لا تعتبر مثالية ، ذلك لأنه على الرغم مما فيها من صراع مروع رهيب ، وهو لحمة المسرحية الجيدة وسداها ، فهذا الصراع ضائع مشتب بين شخوص المسرحية ، حتى ليبدو وكأن اهتمامنا بالطريقة التى يسلكونها يزيد على اهتمامنا بالأفعال التى يؤدونها .

إن هذه المسرحية ، كصفحة من الحياة ، وكماثرة للأدب ، قد بلغت حد الكمال ، وذلك لأن أدوارها جيدة البناء ، وحوارها ينساب حراً على سجيته فيهبج القلوب ويشرح الصدور .

ونرى فداحة الثمن الذى دفعه العمال وأرباب العمل جميعاً فى هذا الصراع ، ثم نعلم أنه كان على غير جدوى ، ذلك لأن شروط التصالح التى وافق عليها الفريقان فى النهاية هى بذاتها التى كانت مقترحة منذ البداية !

إن كاتباً مسرحياً يستطيع أن يضع أمام بصائرنا مثل هذه المناظر المتألقة المشرقة ، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين ينبضون بالحياة حارة فائرة ، ويستحثنا على أن نفكر فى المساوىء والمظالم ، ومع ذلك يمدنا بالمتعة الأخاذة التى يهبشها تقدير معاصريه ، ويؤكد أنه لابد سيخلف للآتين من بعده ما يستحق التخليد .

هذا الرجل هو جون جلزورذى .

ولما كان هذا الكاتب ، جون جلزورذى ، لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ، فإننا نعتقد ونتوقع أن ما قدمه من إنتاج حتى الآن إنما هو مجرد عربون لما سيقدمه فيما بعد .

ولزام ألا يجول بخاطرنا أن جواً ثقيلاً من الوعظ والإرشاد سيرخى سدوله على مواطن إنتاجه ، أجل ، لن يحدث هذا على الإطلاق ، فجون جلزورذى ، كصانع بارع ، قلما يعلو عليه أحد ، فالمناظر ، فى مسرحياته ، تتحرك فى فتنة وفى غير كلفة ، كما أن فى مقدوره أن يضمّن مسرحياته عنصر الفكاهة المرحّة فى استجابة وانسجام تام مع شخصيتها .

إن جون جلزوردي لا يطلق تباعاً الدعابات البارعة والتوريات الذكية ،
ولكن الأشخاص الذين يضعهم على خشبة المسرح ليسوا ممن يستخدمون
هذه الدعابات والتوريات في الحياة الواقعية ، فالفنان الأصيل لا يستطيع
أن يكشف عن نفسه أكثر مما تستطيع فطنته المجردة غير المشوبة أن
تضبط لسانه .

بعض مسرحیات جلزورڈی تلخیص و تعلیق

الصندوق الفضى والعدالة

تمهيد للمسرحيتين

ظهرت مسرحية « الصندوق الفضى » ومثلت بمسرح البلاط الملكي في اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٦ ، فكان ظهورها فتحاً فنياً في تاريخ المسرحية الإنجليزية ، وإن لم يفتن الجمهور إلى هذه الحقيقة إلا متأخراً ، فكان أن اتجهت الأنظار بالأوساط المسرحية إلى الكاتب في ترقب ورجاء ، بل في ثقة وإيمان ، بما سيناله المسرح الإنجليزي على يديه من خير كثير ، فلم يخيب الآمال العريضة التي عقدت عليه ، بل استمر في إنتاجه الخصب للمسرح منذ هذا الحين ، وبذلك ساهم في النهضة التمثيلية في إنجلترا بأضخم نصيب .

ثم ظهرت قصة « العدالة » ومثلت بمسرح دوق أف يورك في اليوم الحادى والعشرين من فبراير عام ١٩١٠ فكان لها ضجة ودوى ، إذ خرج فيها الكاتب من التلميح الخفيف العابر الذى لجأ إليه في القصة الأولى إلى التصريح الحاسم الحازم فناقش مبدأ العدالة بعد أن ألم به من كافة أطرافه ، في جرأة المؤمن بما يكتب ، وفي وثوق الدارس له ، المتمكن منه ، إذ كانت الفكرة قد نضجت في ذهنه تمام النضوج ، فخصص لها هذه القصة بأكملها .

* * *

عالم جازورذى في مسرحيته الآنفى الذكر قضيتى الرحمة والعدل ،

وما بين الرحمة والعدل من آفاق مترامية فسيحة ، تسبح فيها شتى خوالج النفس ، وعواطف القلب ، ونزعات الفكر ، تارة فى رقة ولين ، حتى لكأنها حفيف الأشجار وموسيقى السماء ، وتارة فى قسوة وعنف حتى لكأنها قصف العواصف وضجيج الحروب ، ذلك لأن فيهما من الرفق والتسامح بقدر ما فى الرحمة من رفق وتسامح ، وفيهما من الروعة والجلال بقدر ما فى العدل من روعة وجلال ، وهما إلى جانب هذا ، قصتا الإنسانية والحياة لأنهما منتزعتان من صميم الإنسانية ومن صميم الحياة .

صور جلزورذى فيهما إيمانه بالعدل على أنه ضرب من الرحمة بالجماعة ، لحمايتها من شرور الفرد الذى لا يمكن إصلاحه ، فإذا كان إصلاحه ميسوراً وشره نزوة عارضة لا أكثر ، ابتعثتها ظروف توفرت فيها أسباب الإغراء وجب أن يأخذ العدل صورة الرحمة بالفرد دون الجماعة وبذلك تتم وظيفة العدل فى أسمى معانيها .

وصور فيهما الرحمة على أنها ضرب من العدل الذى يجب أن يحمى الفرد من استضعاف الجماعة له ، ومن تعسفها فى وضع القوانين ، وتعتنيتها فى تطبيقها عليه تطبيقاً آلياً ، يتجافى مع روح القانون وجوهره ، وإن سار وفق حرفيته .

* * *

«والصندوق الفضى» إلى جانب هذا ، قد اختصت بأن تكون قصة الثراء ، وما يوفره الثراء لصاحبه من أسباب تساعد على محو معالم جريمته إذا أجرم ، وعلى الإفلات من القانون ، إذا طاله القانون ، أو هى قصة الفقر الذى يضخم الهفوة التى قد يرتكبها الفقير تحت ضغط

من العوذ والإملاق ، وما يحمله الفقر عادة في أعقابه من عار الافتضاح .
 ففي هذه القصة ، يظل الغنى ، وهو المجرم الأول ، حرّاً طليقاً ،
 لا سلطان للقانون عليه ، إذ يستعين بماله على الاحتفاظ بأهليته وكرامته
 بعد إنقاذ شرفه ، بينما الفقير المسكين لا حول له ولا قوة ، تشتد حلقة
 القانون حول عنقه ، وتضيق وتضيق حتى تكتم أنفاسه أوتكاد .

مسرحية الصندوق الفضى

قصة الصندوق الفضى

بطل هذه القصة ، أو الضحية فيها ، رجل تعطل عن العمل ، فراح يغرق فى الخمر همومه ، فازدادت حالته سوءاً إلى سوء ، ولم يجد مناصاً إزاء هذه الظروف القاسية من أن يسمح لزوجته بالخدمة فى أحد بيوت الأسر الإنجليزية العريقة حتى يتيسر للزوجين أن يقوموا بأود صغارهما . تغيرت طباع الزوج ، إذ سدت سبل العيش فى وجهه ، وأحس بأنه أصبح يعيش حالة على زوجه ، فبات مشاكساً عنيداً ، ضيق الصدر ، لا يكاد يطيق أحداً ولا يطيقه أحد ، يفر من منزله طوال ساعات النهار وشطراً كبيراً من الليل ، فلا يعود إليه إلا مع الفجر ، أو قبل الفجر بقليل ، حتى لا يضاعف الآلام والأحزان التى تجثم فوق صدره ، بما يشاهده من مظاهر الذلة والمسغبة والشقاء التى خيمت على كل ركن من أركان مأواه الحقيق .

وفى الهزيع الأخير من إحدى الليالى ، إذ كان الزوج يسير كعادته منكفئاً ميمماً شطراً منزله ، لاقاه شاب تبدو عليه مظاهر النعمة والترف والثراء ، ولكنه مخمور لا يكاد أن يستبين ، من فرط سكره ، موضعاً لقدمه ، قد فقد كل سلطان له على نفسه ، حتى أصبح لفظه المتلطم . وأطرافه المرتعشة غير المتأسكة ، مثاراً للسخرية والرائع معاً .

وكانت تلاحقه إحدى بنات الليل التعسات ، وتجدّ في سيرها خلفه ، كما لو كانت تطارده ، والشاب يحث الخطى ويسرع مبتعداً ، دون أن تسعفه ساقاه المتخاذلتان ، حينئذ خف الزوج إلى معاونته ، فمكن له سبيل الفرار ، وساعده على الوصول إلى منزله الفخم ، حيث اتضح لدى وصولهما ، أن هذا الشاب هو وحيد الأسرة الثرية التي تقوم الزوجة بخدمتها ، وهو إلى جانب هذا معقد آمال والديه ووريثهما المرتقب .

تسلل الشاب إلى داخل المنزل ، وهو يحاذر أن يشعر أحد بوصوله في هذا الوقت المتأخر من الليل ، ثم تذكر أنه ترك صاحبه في الخارج دون أن يكافئه على صنيعه ، فعاد إليه وإذ لم يجد ما يمنحه إياه دعاه لمشاركته الشراب ، فلبى الزوج الدعوة في غير قليل من التردد ، وبينما هما يحتسيان الخمر بإحدى قاعات المنزل ، ذات الرياش الفخمة ، راح الشاب يفاخر بأنه قد اغتصب من الفتاة حقيبة يدها ، انتقاماً منها لهفوة ارتكبتها معه وإذلاً لها ، وما كاد الشاب ينتهى من حديثه ، وهو مستلقى على إحدى الأرائك الوثيرة ، والزوج منتصب أمامه كتمثال حي للشقاء والبؤس ، حتى أخذه سبات عميق ، فتراخت قبضته عن حقيبة الفتاة ، وحينئذ انفرط ما بها تحت قدميه ، فتناثرت بضعة جنينيات ، لا تزيد ولا تقلل من ثروة هذا الشاب الثرى الوافر الثراء ، بينما كل جنينه منها هو لمن كان في مثل حال الزوج الجائع المحروم بمثابة الحد الفاصل بين قسوة العالم ورحمة السماء ولو إلى حين .

ظل الزوج يتطلع مشدوهاً إلى المال ، وينقل بصره بين محتويات القاعة في أنفاس مبهورة ، إذ كان كل ما بها ينبئ عن ثراء مفرط ، وكانت

التجربة مليئة بالغواية والإغراء ، فعند قدميه قد تناثر المال ، وفي متناول يده قد تكدست نفائس التحف ، وكلاهما من حبائل الشيطان التي راحت تدعوه في غواية الحية أن يلتقطها أو يلتقط بعضها ، يسد بها رمق صغاره الجائعين ، وكان للخمر التي نزلت إلى جوف فارغ جائع ، نشوة تسبح الجريمة في أجوائها ، لذلك اختلت موازين الفضيلة ومعاييرها في اعتبار الزوج المسكين وتقديره ، فلم يعد يرى إلا أنه محروم وأن غيره غير محروم ، ولم يعد يرى إلا أن القدر قد شاء أن تكون قسمته من الحياة قسمة ضيزى ، بينما قد شاء هذا القدر لغيره من لذائذ العيش ونعيمه النصيب الأكبر ، نصيب الأسد ، ولعله أحس ، بجانب هذا ، أنه إذا استولى على ما يملكه الغير فلن تلحقه سوى التبعة القانونية فيما إذا انكشف أمره ، أما التبعة الأخلاقية فهي حتماً ستتخطاه إذ هو سيقدم على ما سيقدم عليه مدفوعاً بعاطفة من أنبل العواطف وأسمأها ، هي عاطفة الأبوة ، وما يتبعها من حنان وإيثار وإنكار للذات ، أما هذا الشاب الثرى فقد اغتصب ما يملكه الغير ، وارتكب ذات الوزر مسوقاً برغبة من أحط الرغبات وأخسها ، هي رغبة الانتقام والتشفي ، فهو لذلك مجرم في عرف القانون والأخلاق معاً ، ليس في هذا ثمة شك .

وبالرغم من هذا المنطق السليم ، فقد ظل الزوج طويلاً في حيرة من أمره ، متردداً بين الإقدام والإحجام إذ كان نهياً مقسماً بين فطرة الخير الكامنة في أعماقه ، ونزوة الشر التي ابتعثتها ظروف قد امتلأت بكل أسباب الغواية ، فظل يقاوم هذه النزوة حتى تصدعت أركان مقاومته ، وانهارت أمام تيارات الإغراء المتلاحقة التي كانت لا تفتأ تتدافع إلى موضع

التفكير من نفسه ، وأخيراً مد يده فالتقط المال المسروق أو المسلوب ونجأه في جيبه ، وقد تصبب عرقاً ، ثم قنع من كل النفائس التي كانت تملأ الغرفة بصندوق فضي للسجائر كان هو أقرب هذه التحف إلى متناول يده ، خمله وهو لا يكاد يعي ما يفعل ، ثم تسلل في هدوء إلى الخارج دون أن يشعر به أحد إطلاقاً ، فوصل إلى منزله في إعياء شديد .

وفي الصباح اكتشفت سرقة الصندوق الفضي ، فحامت الشبهات حول الزوجة المسكينة ، إذ كانت حديثة العهد بخدمة هذه الأسرة ، ثم أخذتها الريب من كل جانب ، فحاولت عبثاً أن تدفعها عن نفسها ، إذ كان باقي الخدم ممن قضوا في خدمة الأسرة سنوات ، وكانت أمانتهم فوق كل شك أو ظن ، لذلك سرعان ما دهم البوليس منزلها حيث عثر على الصندوق وعلى المال المسروق ، الذي لم يتيسر للزوج أن يرشد عن مصدر شريف له ، ولما أراد رجل البوليس أن يقود الزوجة إلى المخفر للتحقيق معها في التهمة الموجهة إليها ، حاول الزوج أن يشنيه عن هذا العزم ، محتجاً لديه أنه هو وحده المسئول عن هذه السرقة ، وأن زوجه لا ناقة لها فيها ولا بعير ، ثم أبدى استعداداه لأن يذهب معه إلى المخفر للاعتراف رسمياً بهذه الوقائع .

لم يكثر رجل الشرطة لأقوال الزوج ، متوهماً أنها إنما قيلت للتغريب به ، ولتمكين الزوجة من الإفلات من يده ، فلم يعر احتجاجه أى اهتمام ، وأصر على موقفه من الزوجة ، حينئذ ثار الزوج وتهيج ، إذ أحس في إصرار رجل الشرطة على أن يسوق زوجه البريئة إلى السجن ظلماً ودونه كل ظلم ، وامتهاناً لكرامته كرجل دونه كل امتهان ، فاعتدى عليه كي

يحول بينه وبين تنفيذ هذا الغرم الجائر ، فكان هذا سبباً في أخذ الزوجين عنوة إلى المخفر ، بعد أن تفرعت من تهمة السرقة الموجهة إلى الزوجة البريئة المسكينة ، تهمة أخرى وجهت إلى الزوج ، هي تهمة التعدي على القانون وعلى ممثل السلطة التنفيذية في أثناء تأدية وظيفته .

في هذه الأثناء ، كانت فتاة الليل ، التي اغتصب الشاب ، وهو مخمور ، حقيبة يدها ، قد اهتدت إلى منزله ، وراحت تفضي إلى والديه بما حدث ، فوقع النبا عليهما وقعاً شديداً ، خاصة وقد ظهر من سياق الحديث أن شخصاً أجنبياً عن المنزل كان بصحبته ، وأنه من المحتمل بل المرجح ، أن يكون هذا الأجنبي هو سارق الصندوق الفضي ، وإذ خشيا أن يؤدي الأمر إلى الكشف عن جريمة ولدهما غير الهينة ، عمداً من فورهما إلى إزالة معالم هذه الجريمة ، إذ أعادا إلى الفتاة حقيبتها ، وأجزلا لها العطاء ، وبذلك استرضياها ، وضمنا صمتها وعدم تقدمها للسلطات المختصة بشكواها ، ولكنهما فوجئا بالقبض على الجاني ، ومعرفة شخصيته ، فتجددت مخاوفهما من افتضاح جريمة الابن المستتر ، فكلنا أحد المحامين البارزين لتسوية الأمر ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت بعد أن قبض على الزوج بتهمة التعدي .

وعقدت الجلسة للنظر في تهمة السرقة والتعدي ، فراح الزوج يعترف بذنبه ، في غير مواربة أو التواء ، فكأنما هو سعيد بن حميد الأندلسي الذي كتب معتذراً يقول : « أنا من لا يحتاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . . »

فهل قدر القضاء هذا الاعتراف بالجرم من جانبه ؟ !
 وهل التمسوا له العذر أو بعض العذر فيما كان يقاسيه
 من ألوان الحرمان ، ومن تأثير الخمر عليه ؟ !

كلا . . وبالرغم من هذا راح يكشف في جرأة ساذجة عن العوامل
 النفسية التي دفعته إلى التعدي على رجل الشرطة ، مؤكداً بأنه تصرف كرجل
 كان عليه أن يحمي المرأة التي تحمل اسمه من عنت لم يكن هناك ما يبرره ،
 مادام قد اعترف لرجل البوليس بجرمه ، وأنه وحده من يجب عدلاً أن يتحمل
 وزر جريمته .

فهل قدر القضاء هذا الدفاع الذي لاصناعة فيه ولا تكلف ؟ !

وهل فطن ممثل القضاء إلى ما في هذا الدفاع من بساطة وبراءة ؟ !
 كلا . ! فالقانون في عرف جلزورذى جامد لا يتأثر بالعوامل الإنسانية
 المحضة ، ولذلك فقد ختم المؤلف قصته بإدانة الزوج وحده بعد أن تجلت
 براءة المحامي الموكل عن الشاب في الاستعانة بحرفية القانون لمنع الزوج المسكين
 من الخوض في ذكر التفاصيل التي كانت لابد ستشرك الشاب في الإدانة .
 وفي أثناء هذه المحاكمة وضع جلزورذى على لسان الزوج المضطهد
 الساذج عبارة نطق بها ، بعد أن حيل بينه وبين الإدلاء بأقواله عن ظروف
 التقائه بالشاب ، إذ صاح قائلاً في مرارة ساذجة ، أو في سذاجة مرة :
 « ونقولون إن هذه عدالة ١٩ » وهي عبارة بالرغم من بشاطتها الظاهرة ،
 قد حملت بين تضاعيفها ما يحسه جلزورذى من استنكار للجمود الذي
 تطبق القوانين بمقتضاه في كثير من الأحيان ، والذي خصص لمعالجته
 في عام ١٩١٠ مسرحية مستقلة هي : « مسرحية العدالة » .

مسرحية العدالة

قصة العدالة :

المتهم فى هذه القصة شاب فى مستهل العقد الثالث من عمره ، يشغل وظيفة كتابية بمكتب أحد كبار رجال القانون ، ممن يحرصون على السمعة الطيبة والشهرة الكريمة التى حصلوا عليها بحق ، وجريمة الاختلاس التى ارتكبها هذا الشاب وإن بدت كبيرة غير هينة ، وكشفت عن تفكير ملتو غير صريح ، فقد كان لها مبرراتها ، أستغفر الله ، أريد أن أقول كان لها دوافع الإغراء إليها ، أجل ، فقد كانت هناك حواء بضعفها المقهور القاهرة ، وذلمها المستكين الجارف ، ودمعها الهتون الذى يحيى ويميت ، بل كانت هناك فورة الصبا الغرير وأحلامه ، أرسداجة الصبا الثائر واقتحامه ، بل كان هناك جماع هذا كله ، جماع هذه النزوات والمغريات الدافعة ، التى إذا انطلقت فهى الشيطان قد فك من عقاله ، أو السيل ينهمر متدفقاً محطماً ، لا يبقى على شىء يعترض طريقه ولا يذر .

لقد أحب هذا الفتى ، فكان فى حبه نموذجاً للتضحية وإنكار الذات ، وجد فتاة أحلامه فى زوجة مهیضة الجناح ، محطمة القلب ، قد عصفت الحرمان والإذلال بكل ما كانت تنطوى عليه نفسها من أمل وإيمان ، واستغل زوج شرس غشوم ضعفها وتعاستها ، فأذاقها من الهوان ألواناً ، وسقاها من كأس الحياة الصاب صرفاً ، فحنا عليها هذا الشاب المتهم حينما أعوزها الحنان ، وراح يغمرها بفيض من نبع روحه ، وراح يملأ

كأس حياتها من ذوب قلبه ، حتى حوتها نشوة هذا الحب الجارف الجديد
فانتزعت روحها أو كادت من الهوة السحيقة ، التي كانت قد تردت إليها
وباتت ترقب يوم الخلاص من ربقة زوجها ، حتى تنعم ببزوغ فجر
حياتها الروحي ، هذه الحياة التي كان قد حواها الجفاف وشملها الفراغ
الرهيب .

كان حبه لها حباً جارفاً غريزاً بقدر ما كان بريثاً ، أشبه ما تكون دوافعه
وظواهره بدوافع فروسية القرون الوسطى وظواهرها ، فهو لم يفكر يوماً أن
ينتهر فرصة يأسها أو يستغل ما كان يعلمه ويحسه من استجابتها لنداء
قلبه المدوي وحبه الكبير ، بل راح يرقأ دموعها الصببية ، ويضمّد جراح
قلبها العميقة ، ويضني عليها من حذبه وحنانه في سخاء دونه كل سخاء ،
قانعاً عن كل هذا ببسمة الرضا تنير وجهها الشاحب ، فتتهلل لها روحه ،
وبدمعة الجزل الشاكر تنساب من جفنها الكليل ، فتروى ظمأ قلبه ،
وتملأ هذا القلب بالرغبة في التضحية ، والاستعداد للتجرد والإيثار .

ولأجلها ارتكب جريمته ، بل لأجلها باع روحه للملائكة أو للشياطين ،
فهو ما كان يدرى ولا يعنيه أن يدرى ، في سبيل إنقاذها من بين براثن
زوجها الوحش العرديد ، أين موقفه من الملائكة أو الشياطين .

ولكنه بالرغم من هذا دبر جريمته في إحكام بارع ، ونفذها في خبث
غير برئ ، حتى كاد أن يوقع في حبالها شاباً آخر من زملائه بالعمل ، ساء
المتهم ، أو ساءت الظروف ، أن يكون هو الضحية البريئة على مذبح
غوايته ، أم الحمل الوديح الذي أعد للفداء . ولولا القدر الساخر أو
الساهر ، لما نجا هذا الزميل المسكين من الشباك الثقبلة التي للقانون بحكمه .

عمله مع أحد رجال القانون ، فقد حقت عليه تبعة الجريمة كاملة غير منقوصة ، وبوعده بينه وبين كل ما من شأنه أن يكون سبباً لتخفيفها ، على حد ما ذهبت إليه هيئة المحكمة التي قررت إدانته ، ولم تجد أى وجه لاستعمال الرأفة معه ، لخطورة : الجريمة التي ارتكبها وللضرر الذي كان لابد سيلحق المجتمع إذا لم يؤخذ المتهم بالشدة حتى يكون هذا رادعاً لغيره مما قد تسول لهم نفوسهم الشريرة التفكير فى الإقدام على مثل جريمته ، إذ أن حماية المجتمع وضمان الأمن له هما الهدف الأول الذى يجب أن ينشده القضاء على حد ما قررته هذه المحكمة ضمن الحيشات التى بنت عليها الحكم الصارم الذى أصدرته ، والذى يقضى بحبس هذا الشاب التعس ثلاث سنوات مع الشغل .

* * *

ويبدو أن جلزورذى لم يرتب هذا الحكم الصارم ، بالرغم من الدفاع الرائع الطريف الذى ساقه على لسان المحامى عن المتهم ، إلا لأنه كان يحس إحساساً قوياً بأن القضاء فى إنجلترا كان ينقصه إذ ذاك عنصر حيوى هام ، هو فهم الطبيعة البشرية على حقيقتها بما فيها من ضعف وخور ، وما يستلزمه هذا الفهم من دراسة عميقة لهذه الطبيعة بعد تحليلها إلى عناصرها أو غرائزها الأولى ، وإلا لأنه كان يؤمن فى عام ١٩١٠ وهو تاريخ وضعه لهذه القصة ، بما وصل إليه علم النفس الحديث من نظريات كاد أن يقطع بصحتها ، تتلخص فى أن الجريمة ضرب من المرض قد يعتور بعض النفوس ، وأن كثيرين من مرتكبي الجرائم ، على هذا الأساس ، إنما هم مرضى ، يجب أخذهم باللين والرفق ، والإشراف على علاجهم حتى

يبرأوا وتصح نفوسهم .

ولكى يتيسر لك أن تكون فكرة صحيحة صادقة عن هذا الإحساس ،
أو الاقتناع ، الذى كان يفعم صدر جلزورذى ، كمصلح اجتماعى ،
سأنقل لك فيما يلى الشطر الأكبر من أقوال الدفاع التى لم يعرها المحلفون
ولا القاضى الذى أصدر الحكم ضد المتهم المنكود أدنى التفات :

الدفاع :

يا حضرات المحلفين

لقد بدا من سياق استجواب ممثل النيابة للمتهم والشهود أنه يميل إلى
الزراية بالأسس التى يقوم عليها الدفاع فى هذه القضية ، والسخرية منها
بل وتسفيهها ، وإنى لأجد لزماً علىّ أن أصرح ، فى غير لبس أو إبهام ،
أننى لن أوفق فى دفاعى ، لا ولن أصل بأى حال من الأحوال إلى موضع
الاقتناع من نفوسكم إذا لم تكن أقوال الشهود التى سمعتموها الآن قد ملأتكم
إيماناً أن المتهم غير مسئول جنائياً عن فعلته ، التى ارتكبها فى لحظة كان
قد تلاشى فيها كل سلطان له على نفسه ، وفقد فيها كل قدرة للتحكم فى
تصرفاته .. لحظة خواء أو فراغ شامل ، طغى على الفكر والخلق معاً ، ابتعثها
فى نفسه ذلك الانفعال العنيف الذى عصف بكل مشاعره لدى علمه بنبا
التعدى الوحشى المجرم الذى كان سيقضى على أعز الناس طراً إليه ، والذى
راح ينهش روحه فى قسوة دونها كل قسوة ، فكانت الآلام الهائلة التى عناها
وهو فى موقف اليأس العاجز عن إغاثة من يحب ، سبباً فى انتزاعه من
دائرة العقل ، وقذفه بعيداً ، حيث وقع فريسة سهلة ميسورة للوثة عارضة

خاطفة ونخيل عابر مؤقت .

لقد أشار صديقي ممثل النيابة إلى ما سماه « وهج العاطفة » ثم راح يؤكد في لهجة الواثق أنني أريد أن أضني من هذا الوهج المزعوم على دفاعي للتأثير عليكم ، وللاستحواز على مشاعركم ، وظاهر أن ممثل النيابة قد جنح فيما ادعاه إلى غير الواقع ، ذلك لأنني إنما قد عمدت - في بساطة لا يفسدها طلاء أو زخرف - إلى الكشف لكم عن عنصر قد يكون غامضاً أو مختفياً ، ولكنه قائم صحيح ، عنصر هام من عناصر الحياة النابضة المختلفة ، التي تربض عادة - بالرغم مما قد ينعتها به الاتهام - خلف كل جريمة ، في ترقب وانتظار .

يا حضرات المحلفين

إننا نعيش في عصر بالغ التحضر ، ولشد ما يثير نفوسنا أن نشاهد منظراً يحمل طابع العنف والقسوة حتى ولو لم يكن له مساس بأشخاصنا أو بأحد ممن يلوذون بنا ، فما الحال إذاً لو كان ضحية هذا العنف سيدة . . . وجيبة أيضاً ؟ ! فليحاول كل منا أن يصور لنفسه ما لا بد أن يساوره من شعور لو أنه كان مكان المتهم ساعة ارتكابه لفعلة وله مثل سنه الصغيرة ! ! . ثم دعونا نمعن النظر إليه لعلنا أن نستشف شيئاً من وراء قسمات الوجه وتقاطيعه . . تطلعوا إليه ! ! . ياللمسكين . . إن هذه القسمات لتكشف عن نفس مضطربة ، وعقل هزيل ، ونور روحي لا يفوقه خور ، ولكنها أبعد ما تكون عن نزعة الشر ؛ هذه القسمات وإن لم تنبئ عن صلابة وعزم ، فهي لا تفصح عن دهاء أو جنوح إلى الاثم ؛ كل ما تنطق به هذه القسمات أن صاحبها واحد من الكثيرين أمثاله ، الذين تعوزهم الإرادة الغالبة ،

التي لا تتحطم لدى أول صدمة يوجهها القدر إليها ؛ إنه الصحية التعيسة لعواطفه ونزوات قلبه .

لقد سمعتم أحد الشهود يصف نظرات المتهم ساعة ارتكابه لفعلته فقال : « كانت نظراته مضحكة » . . وقد أثار هذا الوصف سخرية ممثل النيابة ، ولكن صدقوني يا سادة إنه وصف صحيح ، إذ هو الوحيد الذي يعطى فكرة صادقة عن حقيقة النظرات الزائغة غير المستقرة التي تنبعث من العين إذا ما وصل الإنسان في تفكيره ، من فرط الإعياء واليأس ، إلى الحد الفاصل بين دنيا العقل وما هو خارج عنها ، مما لا يتصل بهذا العقل بأية صلة .

إني لأجد لزماً على أن أراعى الصديق فيما أقرره ، لذلك لن أذهب إلى القول بأن الفترة التي انتفت فيها عن المتهم المسؤولية العقلية ، زادت عن أن تكون مجرد ومضه خاطفة اختل فيها ميزان الفهم والحس معاً ، أو تعطلت في أثنائها وظيفة كل منهما ، ولكني أرى أنه مادامت التبعة الجنائية عن جريمة قتل النفس ، لا تلحق المرء الذي يقضى على نفسه تحت تأثير مثل هذه الحال النفسية الأليمة ، فمن حقه ، عدلاً ، أن يعفى من كل مسؤولية قانونية أو قصد جنائي إذا ما ارتكب أياً جريمة أخرى تحت تأثير مثل هذه الحال النفسية الآنف الذكر ، بل وإنه للزام على المجتمع أن يعامله كمسربض .

سادتي

لست أنكر أن مثل هذا الدفاع عرضة لأن يساء استخدامه إذا لم يعالج في تنصر وفهم ، ويؤخذ في غير القليل من الحذر والاحتراص ،

ولكن لاجدال فى أن القضية التى بين أيديكم تحتم أن يكون الشك فى صالح المتهم .

لقد سمعتمونى وأنا أسأل المتهم عما كان يساوره من تفكير فى أثناء الأربع دقائق الفاصلة ، التى ارتكب فيها فعلته .
فماذا كان جوابه ؟

كنت أفكر فى وجه رئيس الكتبة العجوز الطيب !
وهذا حق إذ يستحيل على إنسان مهما كانت سذاجته ، أو كان دهاؤه ، أن يخترع مثل هذه الإجابة .

إنها إجابة يفيض الصدق المطلق الصارخ من كل جانب من جوانبها .
وما دلالة هذه الإجابة إذن ؟ !

ليس هناك ما يصح أن نسوقه كدلالة وكتعليل لها سوى أن ومضة خاطفة صاعقة كانت قد طغت على عقل المتهم واستبدت به ، فعطلت الإدراك والإحساس معاً عن أداء وظيفتهما .

يا حضرات المحلفين

لقد لاحظتم هذه العاطفة الطاغية الجبارة ، التى تصل ما بين المتهم وهذه المرأة ، التى جاذفت بالمشول بين أيديكم لأداء شهادتها معرضة نفسها فى هذه السبيل لانتقام زوجها الرهيب ، وبدهى أنه لم يساوركم أدنى شك فى الحزن الكبير الذى كان يحتم على صدر المتهم ساعة أن ارتكب فعلته ، هذا الحزن الذى هدّ كيانه ، والذى يثير عادة فى نفوس من هم على شاكلته من ضعاف الأعصاب ، ثورة هوجاء عارمة تعصف بكل ما تنطوى عليه نفوسهم من رجاء وخير وإيمان .

لقد كانت لحظة خاطفة ولكنها ملتاثة رهيبة ، أقدم فيها المتهم على ما أقدم ، دون وعى أو إدراك ، أما بقية تصرفاته فقد أعقبت هذه الفعلة الأولى ، كما يعقب الموت أية طعنة نجلاء تخترق القلب ، أو كما يتدفق الماء من إناء مقلوب .

أجل ، لم يك ثمة سبيل للاختيار أمام المتهم بعد التغيير الذى أحدثته بالحوالة المالية ؛ كانت لجنة القانون قد ابتلعتة . . ولهذا فلا تبعة عليه فيما عمد إليه بعد هذا من تغيير بسجلات المكتب خشية الافتضاح ، ولا فى اعتصامه بالصمت وعدم اعترافه بفعلته قبل افتضاحها ، وأخيراً لا لوم عليه إذ فكر فى الهروب ، مع من ضحى نفسه لأجلها ، إلى بلاد نائية تجهل ماضيه المريب غير الناصع ، أجل لا لوم عليه ولا تثريب فى هذا ، فقد جاءت هذه التصرفات جميعها كنتيجة حتمية لفعلته الأولى التى سبق أن قلنا إنه ارتكبها دون وعى أو إدراك .

وأخيراً فإن دلت هذه التصرفات كلها على شيء فإنها تدل على ما ابتلى به هذا الشاب من ضعف خلقى ، لا على أى قصد جنائى مدبر مع إصرار سابق . فهل نسمح بالقضاء على إنسان لا لشيء سوى أن الظروف أو القدر قد شاء له أن يولد ويشب وهو عبد لخلق ضعيف متهالك ؟ !

سادتى

فى كل يوم يطأ قانون هذه البلاد كثيرين من أمثال هذا السجين فى غير رفق ، ويقذف بهم من حائق إلى وهدة الدمار ، لانعدام البصيرة النفاذة التى تتغلغل إلى أغوار النفس الإنسانية فتخترق حجبتها ، وتستشف الحقيقة من بين تلافيفها ، هذه الحقيقة التى تثبت أن هؤلاء المساكين إنما

هم مرضى لا شأن لهم بالإجرام ولا بالمجرمين .
 وإذن فلو أنكم حكمتهم بإدانة المتهم ، وعاملتموه على أنه من عصابة
 المجرمين الخاسرة ، فليس ثمة احتمال ، كما أثبتت التجارب ، فى ألا
 يصبح واحدا منهم ، وبذلك تكونون قد صنعتهم بأيديكم مجرمًا جديدًا .
 إنى لأطلب إليكم ، فى رجاء واستعطاف ، ألا تصدروا حكماً يقذف
 بالمتهم إلى أعماق السجن الرهيب ، ويقضى عليه إلى الأبد .
 إن العدالة آلة ، لو بدأنا تحريكها ، خرج زمامها من أيدينا ،
 واستحال إيقافها ، فهل قدر لهذا الشاب أن تبطش به هذه الآلة الرهيبة ،
 وتسحقه سحقاً لفعلة أسوأ ما تنعت به أنها ضرب من الخور ؟ !
 هل قدر له أن يصبح واحداً من البحارة التاعسين الذين عصفت بهم
 الأنواء والأعاصير ، وهم عاجزون لا حول لهم ولا قوة ، قد سلبوا كل
 إرادة مذ حملتهم هذه السفن المشثومة التى يطلقون عليها لفظ « السجن » . .
 وهل قدر له أن يخرج إلى هذه الرحلة الشاقة ، التى تظللها الكآبة ويحفها
 الموت ، والتى لا يعود من روادها سوى القليلين ؟ !
 أو هل ستهبونه فرصة أخرى يعود فيها إلى محجة الهدى ، بعد أن
 ضل الطريق ، وحاد قليلا عن سواء السبيل ؟ !
 أستحلفكم بالله أيها السادة ، وبكل ما هو عزيز لديكم ، أن تترفقوا
 بهذا الشاب المسكين فلا تلقوا به إلى التهلكة وبئس المصير .
 إن كلمة واحدة منكم قمينة بأن تبدد عن صفحة حياته ما يشوبها
 الآن من ضباب ، فإن ضننتم بها عليه ، جعلتم حياته أشبه ما تكون بظلمات
 فى بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب .

أيها السادة

لو أنكم حكمتكم بالإدانة ، فلن تمر هذه التجربة القاسية على من كان في مثل سن المتهم وتكوينه العقلي ، ويخرج منها سليماً غير معطوب . . ولكن إذا كان لابد من العقاب فثقوا أنه قد شرب كأس الألم حتى الثمالة ، منذ أحس وطأة القانون وعرف صرامته ، ودهمته آلهة الجبارة .

لقد كفر المسكين عن فعلته ، بل وعن أضعافها بدموعه وعذاب نفسه ، طوال الشهرين المنصرمين وهي الفترة التي مرت منذ أن قبض عليه .

سادتي

إن كلمة الحق المدوية التي تدك الجبال دكاً ، قد لا تصل إلى بعض الأسماع إلا همساً ، أما لدى المطهرين فهي جماع ما أودع في الكون من جمال وجلال ، ولقد تطهر المتهم ، بما سكب من دمع وما قاساه من ألم ، فلا ضيعة للحق عنده ، ولا ردة إلى الضلال بعد أن أضحي من المطهرين ، فاعملوا يا حضرات المحلفين من جانبكم أيضاً على تدعيم هذا النقاء الذي نفذ إلى قلب السجين المائل أمامكم ، والإيمان الذي عانق روحه ، بإفراجكم عنه حتى يتعلم كيف يفخر بكمال الإنسانية التي ينتسب إليها ، عندما يحس أن ما في هذه الإنسانية من الرحمة وجمالها ، لا يقل عما فيها من العدالة وجلالها . . »

* * *

فهل كان إخفاق هذا الدفاع المجيد الحار دليلاً على أن قائله كان - على حد قول الحريري - سادراً في غلوائه ، جامحاً في شطحاته ، جانحاً إلى خربلاته ؟ !

أم كان تفكيره إنسانياً عميقاً ، وصل من الحياة إلى لبابها ، ولم يقنع من الحقيقة إلا بجوهرها ، فسبق عصره ببضع سنين ، ولم يتيسر لمعاصريه من رجال القضاء أن يلحقوه ولا أن يفهموه ؟ !

ليس في هذا الرأي الأخير شك ، فالدفاع ، كما قرأته ، خصب سخي ، بعيد عن سفسطة السفستائين وإغراق البيزنطيين ، وهو إلى جانب هذا ، قد بنى إلى حد كبير ، على أسس علمية صحيحة ، فكل من قرأ الفيلسوف « لوك » يعلم أن من رأى هذا الفيلسوف : « أن كل تغير في الذاكرة يصحبه تغيير في الشخصية » . . . وقد بين « برجسن » الفيلسوف في كتابه « المادة والذاكرة » أن الشخصية والذاكرة اسمان لشيء واحد ، وأن الذاكرة هي كل شيء غير مادي في الإنسان .

فإذا طبقت هذه الحقائق العلمية على تصرفات هذا الشاب ، لكان جلياً أن العقاب الذي وقع عليه كان جائراً ، مادام قد ثبت أنه كان ساعة ارتكابه لفعلة في غير وعيه ، أو بتعبير آخر ، كانت قد تغيرت ذاكرته فتغيرت ، تبعاً لهذا ، شخصيته وبذلك اكتسب شخصية أخرى جديدة ولكنها مؤقتة ، ارتكب فعلته تحت تأثيرها ، فلما عاد إلى وعيه عادت إليه شخصيته الأولى ، وهي شخصية هادئة بريئة ، أو في القليل ليست وثيقة الصلة بفكرة الإجرام . .

وبعد . . لقد فغر وحش السجن الكاسر فاه ، فابتلع الضحية الجديدة وظل مطبقاً عليها فكيه حتى تكاملت ثلاث سنين طويلة بعدها لفظ الوحش ضحيته وقد أصبحت حطاماً ، لا صلة تربطها بالحياة ولا بالأحياء ، فأعرض المجتمع عن الشاب المنكود ، وبات لا يلاقيه الناس من حيثما

أقبل أو أعرض إلا في ازدراء مذل ، وفي تحقير أهون منه الموت ، حتى جف كل نبع للخير في قلبه ، وامتلأ بالحفيظة والحقد واليأس . . . والجوع . . . قاتله الله ! ! . . . لقد كاد أن يستل ما تبقى في قلب الشاب من إيمان في رحمة السماء ، بعد أن فقد إيمانه في رحمة الناس ، ولقد ابتدأت فكرة الجريمة تقحم نفسها إلى رأسه وتسد مسالك الحس من نفسه .

لقد كان من حقه أن يعيش ، فهل يلومه أحد إذا تمرد وثار ضد أية شريعة أو عرف أو قانون ينتزع منه هذا الحق ؟ ! وهل يلومه أحد إذا حاول أن يحطم الأغلال التي تجذبه إليها فتمنعه عن ورود الماء بينما هو يحترق من فرط الظمأ أو يكاد ؟ ! لا . . . لن يلومه أحد ، وإذن فمن حقه أن يمزق هذه الوثيقة الظالمة الجائرة التي دمغته بسمة المجرمين ، وانتزعت منه حقه الطبيعي في أن يحيا إذ سدت في وجهه كل سبل الرزق .

ولقد فعل . . . ولكن ، ولكن أكان من حقه أن يزور وثيقة أخرى يتقدم بها إلى أصحاب الأعمال كدليل على أنه لا زال إنساناً كباقي الناس ، أو في القليل كدليل على أنه أحد الأحياء ، سائمة أو آدميين ، في حاجة إلى الطعام الذي قد حرم منه بحرمانه من العمل ؟ !

لقد أغلق في وجهه كل باب للعيش وفقد كل رجاء في الارتزاق بعد أن أصبح في عرف المجتمع طريد العدالة ونزيل السجون . . . ولكن غريزة حب البقاء الكامنة في أعماقه كانت تضج وتضطخب متمردة ثائرة ، فلم يجد مناصاً من تزوير هذه الوثيقة التي تعاونه على البقاء .

بيد أن القدر لم يرفق بالتعس المسكين ولم يمهله ، إذ سرعان ما افتضحت فعلته ، فراح رجال الشرطة يطاردونه ويتعقبون آثاره ، كأنهم كلاب الصيد ، حتى عثروا عليه وحاصروه فلا نجاة له .

وإذ رأى آلة العدالة الرهيبة هابطة عليه ، مكتسحة . . كل شيء في طريقها ، وهي تدور على نفسها ، تنز وتهدر في ثورة عارمة مجنونة عنيفة ، حتى وكأنها جرم هائل من أجرام السماء ، قد أفلت من نظام الجاذبية الذي يربطه بباقي الأجرام ، التاث عقله من فرط الرعب واليأس ، فقفز من شرفة المنزل الذي حوصر فيه ، وهوى إلى الأرض دون حراك .

لقد ذهب المنكود يستصرخ عدالة من في السماء ، وينشد رحمته ، بعد أن أعوزته رحمة من في الأرض ، وقضت عليه عدالتهم .

مسرحية رب البيت

قصة رب أسرة كامل

ولعل أصدق ما كتب جلزورذى عن سلطان العادات والتقاليد ، ومدى الصعوبة التي تعترض المرء عندما يحاول أن يروض نفسه على الأخذ بالجديد ، والقضاء على القديم الذي نشأ في ظله ، وعاش في كنفه حتى تأصلت جذوره بفعل الزمن قصته "A Family Man" وليس من السهل تعريب هذه التسمية ، ذلك لأنها غير مألوفة ولا هي مستعملة في الشرق ، ولكن من سياق القصة يرى القارئ أن أصبح ترجمة لهذه التسمية هي : « رب أسرة كامل » أو « سيد بيت » قياساً على التسمية الشائعة لدينا « ست بيت » التي تطلق على السيدة المختبرة المحنكة التي تعرف كيف تدبر منزلها وتفرض عليه سلطانها ، إذ المعنى التهكمى الذى يرمى إليه الكاتب هو نفس المعنى الذى تستعمل فيه هذه التسمية الأخيرة مع اختلاف الجنس طبعاً ، ومع التوسع قليلاً في تحديد هذا السلطان .

* * *

مثلت هذه القصة بمسرح الكوميدي بلندن في مايو عام ١٩٢١ أى عقب الحرب العالمية الأولى ، التي فاقت كل حرب سبقتها بما جاء في أعقابها من نتائج خلقية وفكرية غاية في الخطورة والتطرف قامت على أنقاض كثير من العادات والتقاليد التي استأصلتها الحرب أو كادت ،

وليس مُمة ناحية واحدة من نواحي الحياة لم يشملها هذا التغيير .
ولقد أصاب نظام الأسرة ، تبعاً لهذا ، تغيير كاد أن يكون انقلاباً
تناول العلاقة التي تربط رب الأسرة بأفرادها ، فاتسعت آفاق الحرية التي
تتمتع بها المرأة حتى بات من حق أية فتاة بلغت الحادية والعشرين مطلق
الحرية في تصرفاتها الشخصية دون أن يكون لوالديها أى حق في التعرض
لها أو إرغامها على العيش في كنفهما ، مادام في مقدورها أن تجد سبيلاً
مشروعاً للارتزاق .

* * *

عالج جلزورذى في هذه القصة مشكلة اجتماعية من أدق المشاكل ،
فكان موفقاً كل التوفيق في الإحاطة بشتى أطرافها ، وكان موفقاً كل التوفيق
في دراستها دراسة عملية ، مسترشداً بتفكير هادئ متزن لا يشوبه تحيز أو
محاباة ، ولا يحسده نفاق اجتماعي مما قد يحرف تياره غيره من الكتاب
تحت ضغط الظروف أو تزلفاً إلى الرأي العام ، فلم يك جلزورذى ليرضخ
لتقليد أو يبهز جديد أو يأبه لإغراء أو تهديد ، بل كان يكتب دائماً ما
تمليه عليه عقيدته دون أن يخشى في الحق لومة لائم .

* * *

بطل القصة رجل حالفه التوفيق في حياته وفي عمله معا ، أو هو يبذل وكذلك
يدير منزله كما يدير عمله في حزم يستدر الإعجاب ، حتى باتت رغبته ،
حيثما حل ، أمراً واجب النفاذ ، وحتى بات هو مضرباً للأمثال بين الأسر
المحيطة به ، إذ كانت كل الظواهر تنبئ بأنه من الأزواج القلائل الذين
تيسر لهم أن يوفقوا بين واجباتهم نحو الأسرة ، وما يتطلبه العمل الذي

يزاولونه من انهماك واستغراق .

هو في عمله حازم إلى حد الصرامة ، لا تأخذه رحمة فيه أو هوادة ، ولا يكثرث إلا لما يعود على هذا العمل بالنفع ، دون أن تفت في إرادته الحديدية عاطفة طارئة أو نزوة عارضة .

وهو يعرف طريقه إلى الهدف الذي ينشده ، فيسير إليه قدماً لا يلوى على شيء ، والويل كل الويل لمن يعترض طريقه أو يضع فيه العقبات فهو لن يشفق عليه أو يرحمه إذا أذقت ساعة الحساب ، مهما طال الزمن وعز الانتظار ، لذلك أصبح اسمه معوطاً بهالة من الرهبة أو الجلال أو هما معاً ، ومن ثمة تسربل هذا الاسم بغلالة من الغموص الذي يضاعف هذا الجلال المهيّب .

وهو إلى جانب هذا ممن يؤدون واجباتهم الدينية ، إن لم يكن على أكمل وجه ، ففي غير تقصير أو فتور ظاهر ، وبذلك جمع بين الدين والدنيا معاً ، وضمن الآخرة في نظر الجميع كما ضمن الأولى واطمان إليها .

سارت أعماله من نجاح إلى نجاح ، وأصبحت سيرته العاطرة حديث سكان المقاطعة التي يعيش فيها ، فعقدوا آمالهم عليه ، واتجهت أنظارهم إليه كالمرشح الوحيد لأن يخلف رئيس بلديتها ، حينما تنتهى مدة رئاسته القانونية .

وهو سعيد بحياته ، معتد بنفسه ومركزه ، مطمئن إلى مستقبله الباسم الذي يتراءى له متلاًئماً من وراء الأفق ، وأنت ستلمس هذا حينما تقرأ ما كتبه رداً على رئيس البلدية الآنف الذكر عندما عرض عليه هذا الأخير ،

باسم البلدية أو مجلسها ، مركز الرئاسة لدى حلول موعد اختيار الرئيس
الذى يتجدد كل عام ، فقد جاء هذا الرد كما يلي :

« سيدى الرئيس

إيماء إلى الحديث الذى دار صباح اليوم بيننا ، أرى أن أصارحكم
بأننى كنت فى الواقع راغباً عن قبول الرئاسة ، عازماً على الاعتذار عن
تحمل أعبائها ، لما تعلمونه عن المهام غير اليسيرة التى أضطلع بها ، لولا
أننى بعد إمعان الفكر ، انتهيت إلى رأى بأنه لزام على أن أكرس النصيب
الأكبر من وقتي للخدمة العامة .

وإنى وإن كنت أحس عجزى عن تحمل مسئوليات المنصب الضخمة ،
وعدم استحقاقى للشرف الذى تفضلتم فأضيفتموه علىّ بهذا الاختيار ،
لا يسعنى بحال إلا أن أستجيب لرغبة المجلس ورغبتكم ، لذلك أتشرف
بأن أخطركم بالقبول » .

« توقيع »

* * *

هكذا جاء رد صاحبنا ، يفعمه عزوف الزاهدين وانصراف القانعين ،
بينما هو من فرط طربه لهذا العرض الذى طالما سعى إلى تحقيقه ، يكاد
أن يحس مثل ما كان يحسه الحسن بن وهب حينما كتب معبراً عن
شكره وعرفانه للجميل قائلاً :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أقدرته عليها ، فإن
شكرى لك على مهجة أحيتها ، وحشاشة أبقيتها ، وأمل أمسكت به
وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ،

ومدى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه
النعمة التي قد فاقت الوصف ، وأطالت الشكر وتجاوزت قدره ، وأتت
من وراء كل غاية . . . فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جهد المجتهد ١٢ . . .
وراح الرجل الطامح يرقب تحقيق هذه الأمنية الجميلة الحبيبة إلى
نفسه ، في وثوق وفي اطمئنان ، فلم يك هناك ثمة عائق يحول دونها ،
وهو من كلل غار المعجدهامته ، واستحالت له الحياة كلها بسمة هائلة
مشرقة على ثغر الوجود .

ولكن . . . ولكن أرأيت شجرة البلوط الضخمة المنشابكة الأغصان ،
التي نخر السوس أصولها ، فلم تصمد لهبات الريح العاتية ، بل سقطت
وكان سقوطها شنعاً ١٢

وهل رايت البناء الشاهق ، الذي راحت قمته تناطح السحاب ،
بينما أخذت أساساته تميد ، إذ كانت قد أقيمت على صعيد من الرمال ،
فانهار فجأة ، وكان انهياره مثار الألم والدهشة والرثاء ١٢

هكذا كان سقوط هذا الرجل المسكين ، رهيباً وعلى غير انتظار .
أجل ، لقد زلزلت الأرض زلزالها ، فمادت تحت قدميه ، وصبت
السما صواعقها على رأسه ، واحدة إثر أخرى ، حتى كاد أن يفقد عقله ،
لولا ما كان يتمتع به دائماً من صلابة في العزم ، وصبر على المكاره وفي
الملامات وأضخم الأحداث ، وجلد يجرى من قلبه وروحه مجرى الدم
والفكر والعاطفة جميعاً .

* * *

كانت أولى الصدمات التي وجهها القدر إلى هذا الرجل ، خروج

كبرى ابنتيه عن طاعته ، فهجرت منزله ، واستقلت في معيشتها وسكنائها ، ثم راحت تزاول هوايتها في فن التصوير بعيداً عنه ، وهو الرجل المحافظ الذى يحرص على سمعته الأدبية حرصاً لا يقف عند حد ، وهو الذى يزعم ويفتخر بأن سلطانه الروحي قد شمل أفراد أسرته جميعاً ، والناس من ورائه يزعمون هذا ويغبطونه عليه ، لذلك كانت المفاجأة أليمة عندما أعلنت هذه الابنة تمرداً على هذا السلطان المطلق الجائر الذى كان يفرضه عليها .

لقد أحست الفتاة أن هوة عميقة من التباين في العاطفة والتفكير والمشرب تفصلها عن والدها ، وأنه هيات لمن كان مثله ، من رجال الأعمال ، الذين طمست الماديات على بصائرهم ونفوسهم ، ونخبت جذوة العاطفة في قلوبهم ، أن يستعيد حرارة التوثب العاطفي الجريء ، فيقفز من فوق هذه الهوة السحيقة التي تقوم بينهما وتفصلهما ، كما يصل إليها ويفهمها ، وهيات أن ترضى هي أن تحمد بيدها جذوة هذه الحياة من قلبها ، حتى لا تحس إلا ما يحسه ، ولا تفكر إلا كما يفكر ، وهو كما تراه ، رجل أناني جامد ، ليس في مقدوره أن يفهم روح العصر الذى يعيش فيه ، ولا أن يستسيغ ما شمل الحياة ببلاده من ضروب التطور ، وما نالته المرأة من حرية ، واكتسبته من حقوق ، فهو عبد لتفكير متبلد تعوزه مرونة الفهم ؛ ويعود بصاحبه دائماً إلى الوراء . . . إلى الماضي ، الماضي البائد العتيق .

* * *

وها هي ذه ابنته الثانية ، وقد بلغت الحادية والعشرين من سنها ،

تحذو حذو شقيقتها ، فتعلنه بعزمها على تركه والاشتغال بالسينما ، فيحاول المسكين إقناعها بالعدول عن هذا العزم تارة باللين وتارة بالعنف ، ومرة بالإغراء والوعد ، وأخرى بالتهديد والوعيد ، ولكن دون جدوى ، إذ كانت هي الأخرى قد ضاقت ذرعاً كأختها باستبداد والدها وجموده .

ومن سياق الحوار الذى دار بين الاثنين ، والذى نقله إليك فيما يلى ، يتيسر لك أن تكون لنفسك فكرة صحيحة عما يصح أن يكون دائماً سبباً للصراع الخالد ، الذى يقوم عادة بين القديم بتقاليده المتأصلة ، وعاداته الراسخة ، والجديد بما له من فتنة وجدة :

الحوار

بين الوالد وابنته الصغرى

الابنة : لقد وفقت إلى عمل أزاولة يا أبى .

الوالد : أرجو ألا تكون « حمى الفن » التى أصابت أختك قد انتقلت إليك عدواها .

الابنة : هذا يتوقف على رأيك فى الاشتغال بالسينما وما تنعت به هذا العمل .

الوالد : الاشتغال بالسينما ! أنت تمزحين دون شك ، ولست اليوم مستعداً للمزاح .

الابنة : ليس هذا مزاحاً ، فأنا جادة كل الجد .

الوالد : ما هذا الهراء إذن ؟ !

الابنة : إني أعنى ما أقول . . . لقد وهبتى الطبيعة وجهاً صالحاً للستار
الفضى وقد . . .

الوالد : «مقاطعاً» وهبتك الطبيعة ماذا ؟ ! كُنّى عن هذا الهذر ،
فلم تعد لى طاقة على الاحتمال بعد الذى عانيته من تصرف
شقيقتك الأخرق .

الابنة : أرجو ألا تعترض طريقى يا أبى ، فقد طالما تمنيت أن يحل اليوم
الذى يتيسر لى فيه أن أجنى ثمرة كدى ، فلا أعيش عالة على
أحد .

الوالد : عالة على أحد !!

الابنة : نعم . . . والآن لن يتيسر لك أن تمنعنى فشرط الاتفاق التى
انتهيت إليها ستجعلنى فى غنى عن أية معونة تأتى إلى من الخارج .
الوالد : (وهو يضبط عواطفه) أتعنين أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد ؟
الابنة : أجل . . . ولقد وقعت العقد .

الوالد : (فى ألم وغضب) أى مأفون أشر قد زج بك يا ابنتى إلى هذا
المأزق ، وقذف بك إلى هذا المزلق ؟ !

الابنة : لم أكن فى حاجة إلى نصيحة أحد أو إلى إغرائه . . . لقد كنت
أسعى إلى هذا منذ عهد بعيد ، ولقد بلغت الحادية والعشرين
أخيراً كما تعلم .

الوالد : الحادية والعشرين ! وجهاً صالحاً للستار الفضى ! يا إلهى !
اسمعى . . . لن أسمح إطلاقاً أن تزاوّل إحدى بناتى هذا العمل
الفاضح . . . الله وحده يعلم كم كلفنى تعليمكما ، أجل تعليمكما

أنت وأختك .

الابنة : لست جاحدة لهذا الجميل . . . ولكن ، ولكن محال أن أعيش بهذا المنزل .

الوالد : محال ! عجباً ! له ؟ لقد تمتعت هنا بكل رعاية .

الابنة : (فى جرأة وأسى) لا زلت أذكر ما قاسيناه مراراً ، أختى وأنا ، من جراء هذه الرعاية ، فليس فى مقدورنا أن ننسى أو نتناسى أنك كثيراً ما ألهبت ظهورنا بعصاك ، ولم تشأ أن تحرمنا من صفعاتك القاسية .

الوالد : (مأخوذاً) ولكن . . . لقد حدث هذا فى عهد طفولتكما البعيد !

الابنة : (فى تهكم مستور) أرجو ألا تكون راغباً فى أن تعيد الكرة الآن .

الوالد : (ساخطاً) خذى حذرك يا فتاة من عواقب طيشك وإثارتك لى ، فلم يبق فى قوس الصبر منزع بعد ما لاقيته من عناء فى أثناء زيارتي المنكودة لأختك صباح اليوم . . . عودى يا ابنتى إلى محبة الهدى ، وانبذى هذه الفكرة الصبيانية التافهة .

الابنة : (فى اتزان وإيمان) لقد طالما صرحت يا والدى أنه لا قيمة لرجل

لا يشق طريقه فى الحياة مستقلاً عن الجميع ، ولقد سارت قوانين البلاد أخيراً بين الجنسين ، لذلك بات من حقى بل من الواجب على أن أشق طريقى فى الحياة بنفسى .

الوالد : (متالكاً نفسه) لا تجنحى يا ابنتى إلى هذه الجهالة الضالة . . .

قدرى مركزى الأدبى وكيف ستجنين على ، كما جنت أختك ، بهذه التصرفات النابية الحمقاء .

الابنة : (فى عناد وإصرار) إنما الصواب فيما فعلته أختى ، وما أنا مقدمة عليه .

الوالد : (وقد فقد كل سلطان له على نفسه) لقد أثرت وحش التقاليد الكامن فى أعماقى ، وفى أعماق كل رجل يحترم رجولته ، وإذن فلا تلومن إلا نفسك على ما سأصبه على رأسك الصلدة من جام غضبى .

الابنة : (فى جرأة عجيبة) لا عجب ، فهذا هى ذه قسماات وجهك تنطق بالوحشية البروسية الرهيبة ، ولكنى لن أعفبك من سماع صرخة الحق أطلقها الآن مدوية فى الفضاء . . . إنك يا والدى لا تحب إلا نفسك ، ولا تجد أية غضاضة فى أن تفرض إرادتك على كل المتصلين بك مهما كانت هذه الإرادة جائرة ، ومهما نالهم بسببها من شر ، إذ المدارك على مقدار ما تجنيه أنت من نفع ؛ وبالرغم من الأقوال الكثيرة التى كنت لا تفتأ تصبها فى آذاننا عن النشأة الاستقلالية ، وعن الحياة المثالية التى تقوم على أساسها ، فهذه الحياة ، مع الأسف ، ليست فى نظرك سوى شركة مساهمة تستولى أنت وحدك على كل الأسهم فيها .

الوالد : (حانقاً) أيها البيغاء السليطة اللسان التى تهذى بما لا تعى ، وتهرف بما لا تعرف ؛ ليست الحياة المستقلة حقاً بل اكتساباً ، ولا يكتسبها إلا من تحرره مواهبه من ربة التواكل .

الابنة : فلم إذن تعترض السبيل الذى يجعلنى فى غنى عن الجميع ويحررنى ؟ !

الوالد : ليست لمثلك يا ابنتى هذه الحياة الشاقة ، حياة الجهاد والكفاح ...
 ثقي أنك لو جاذفت واندفعت مع تيارها ، فستبتلعك اللجة فى
 عام واحد . . . لا تتطلى إلى أختك فهي قد تجد ما تسد به رمقها
 عن طريق موهبتها الفنية ، أما أنت فليس لديك ما يمكنك
 استخدامه كوسيلة للارتزاق .

الابنة : باستثناء وجهى طبعاً فقد أكد الخبراء أنه صالح للستار الفضى .
 الوالد : وجهك ! هذا هو أحبولة الشيطان التى تقذف بالمرأة دائماً إلى
 الدمار وبش المصير .

الابنة : اطمئن ، فلن ألتمس معونتك إذا قدرت لى هذه النهاية .
 الوالد : لا تضاعف متاعى ، ولا تزجى بى إلى مآزق جديدة لا مبرر لها . . .
 أنت الآن تتمتعين بقدر معقول من الحرية ، وستظلين كذلك
 حتى تتزوجى ، فلا تتعجلى الأمور .

الابنة : لشد ما يؤلنى أن أراك عاجزاً عن أن تفهمنى أو تفهم هذا النزوع
 الجارف القوى الذى قد استولى على كل مشاعرى .

الوالد : ولكن أى نزوع تعنين وإلام تنزعين ؟ !
 الابنة : النزوع إلى حياة الكفاح . . . حياة الاستقلال الشخصى التى
 يحررها الجهاد فى سبيل الرزق .

الوالد : (يائساً) لست أدرى أى شيطان قد أوحى إليك هذه الترهات
 الملتأثة !!

الابنة : إنها جرثومة الحرية التى تسبح فى الفضاء ، والتى نستنشقها
 مع الهواء .

وألقت الابنة الصغرى عن كاهلها نير والدها المستبد ، وحررت نفسها من ربة وحشيته البروسية ، على حد تعبيرها ؛ ثم خرجت إلى الفضاء الواسع تنشد الحرية الجارفة التي جاءت في أعقاب تلك الحرب المشثومة الغشوم .

بيد أن هذه الصرامة البروسية التي نفرت الابنة من أبيها وباعدت بينهما ، كانت قد استهوت خادمته الفرنسية واستولت على مشاعرهما ، فراحت تحيك شباكها من حوله ، وتحيطه بسياج من غوايتها وفتنتها حتى أوقعته في حبائلها ، منتهزة فرصة يأسه وإحساسه بالوحدة ، وإذ هو يطبع على ثغرها قبلته الأولى ، شاء سوء طالعها أن تلمحه زوجته ، فأحست بما في هذا من إذلال لها ، فانفجرت عن ثورة نفسية عنيفة ظلت تكتمها أعواماً طويلة ، تحملت في أثنائها من أنانية زوجها وإهماله لها ما لا طاقة لمخلوق على احتماله ، فشقت هي الأخرى عصا الطاعة عليه وعلى طغيانه ، ثم راحت تنشد مع ابنتها ، بعيداً عنه وعن منزله ، حياة الحرية والانطلاق . وهكذا ، في لحظة خاطفة رأى الجبار صرح آماله الشاهق قد انهار فجأة ، فالسمعة الطيبة المستفيضة ، التي نالها «كرب أسرة كامل» والتي رشحته لرياسة البلدية ، باتت كالعصافاة تذروها الريح ، لذلك خرج من منزله ، كمن به لؤة ، إلى حيث ذهبت زوجته مغضبة ، وقد نوى أن يعيدها إليه مهما كانت العقبات اتقاء للفضيحة الكبرى التي بدا له شبحها المفرزع المخيف عن كذب ، ولكنها رفضت في إصرار ، فلبس ثمة ما يثير النفوس الكريمة قدر استبداد المستبدين ، وهذه المرأة الكريمة قد شربت كأس الظلم حتى الثمالة ، وقد أذكت الابنتان في

نفس أمهما هذه النزعة الثائرة دون أن تشفقا على الطاغية الذى راح يهدر كحيوان جريح قد أطبقت عليه شباك الصائد ، فاستعن بشرطى للخلاص منه والحد من شرته ، فكانت طعنة فى صميم كرامته وكبريائه .

حينئذ انحسر القناع عن الوحش الكاسر الذى يسكن فى أعماقه ، وعصفت بعقله ثورة هائلة ، فراح يسب الجميع ويكيل لهم اللكمات ، ويحطم ما يعترض طريقه من تحف ورياش ، دون أن يكثر للقانون أويأبه له ، فقد رأى أن مثل هذا القانون الذى يبيح لكائن من كان أن يتدخل متطفلاً بين رب الأسرة وأفراد أسرته ، والذى يحد من سلطانه عليهم ، إنما هو قانون فاسد لا يلزم المرء أن يرضخ له .

لهذا لم ينج رجل الشرطة من تعديه عليه ، إذ شاء أن يصب جام مقتته لهذا القانون على ممثل هذا القانون .

وحينئذ كانت خاتمة المأساة إذ قبض عليه ، وزج به فى السجن .

وعلى الرغم من صدور أمر الإفراج عنه بعد ساعات ، وبالرغم من عودة أفراد أسرته إليه مشفقات آسفات ، فقد ذاع نبأ فضيخته ولاكته الألسن ، حتى بات من المتعذر عليه أن يسترد سمعته الأولى ، أو أن يرد إليه بعض اعتباره .

* * *

لقد أراد جلزورذى بهذه المسرحية الناصحة الهادفة ، أن يحمل فى عبارة لبقة ، على المحافظين لجمودهم ، وإصرارهم الأعمى على تسفيه كل ما هو حديث ، كما أراد أن يعيد أنصار الجديد إلى رشدهم ، إذا تطرفوا فى تمردهم على التقاليد ، والتأبى ضد العادات القديمة مهما

كانت صلاحيتها وملاءمتها للظروف ، منكراً على الأولين ، أعنى المحافظين الجامدين ، تعصبهم الجاهل الضيق الأفق لكل ما هو عتيق قديم ، وناعياً على الآخرين تهليلهم الأرعن غير الحصيف لكل ما هو جديد ، إذ الرأي عنده أن التطور هو سنة الحياة ، أما الطفرة فضرب من الثورة ، والتعصب - في أى صورة من الصور - إنما هو لون من ألوان الردة البغيضة الممقوتة .

مسرحية الأول والأخير

سأبدأ هذه المسرحية كما بدأها المؤلف ، مرجئاً أى تعليق أو تلخيص إلى حين ؛ فالمنظر فى اختصار هو حجرة المكتب بمنزل « كيث دارانت » المحامى ، والوقت هو إحدى أمسيات شهر نوفمبر . . . كيث جالس فى مقعد مريح وقد استولى عليه الكرى ، يبدو على وجهه الصلابة والعزم الشديد . . . يدخل شقيقه « لارى دارانت » متسللاً فى خطوات مترددة وهو على نقيض شقيقه ، إذ تكشف تقاطيع وجهه عن الخور وما خلفته حياته العابثة المستهترة من وهن وضعف . . . يستيقظ كيث على حركة شقيقه داخل الحجرة ، فيدور بينهما الحوار التالى :

كيث : من هناك ؟

لارى : (فى صوت مكتوم) لا أحد سوى . . . لارى .

كيث : (نصف مستيقظ) ادخل . . . كنت نائماً .

(لا يحول رأسه ، يبخلق فى النار ، والنوم لا زال يداعب جفونه ، يتنفس لارى بصوت مسموع ، وأخيراً يحول رأسه قليلاً نحو أخيه)

كيث : حسناً يا لارى . . . ماذا هناك ؟

(يتقدم لارى صوب شقيقه متحسناً الحائط ، كما لو كان يستند إليه ، يتحرك بعيداً عن دائرة الضوء)

كيث : (وهو يتفرس في أخيه) أريض أنت ؟
 لارى : (يظل في موقفه دون حراك ، يتنفس الصعداء ، ولا ينبس
 ببنت شفة) .

كيث : (ينهض في ثاقل وهو يحمل في وجه أخيه) ماذا دهاك يا رجل ؟
 (يتكلم في حدة لما أصاب أعصابه من توتر شديد بسبب حال
 أخيه) هل ارتكبت جريمة قتل حتى تقف هكذا مشدوهاً
 فاغراً فاك كالأبله ؟ !

لارى : (هامساً) نعم يا كيث .
 كيث : (في تقزز شديد) يا إلهي ! مخمور كالعادة ! (في صوت
 طغى عليه الخوف) لقد أخبرتك - لو لم تكن شقيقي - !
 اقرب حتى أراك ؛ ماذا دهاك يا لارى ؟
 (يبتعد لارى فجأة عن الحائط ، ثم يلتقي بنفسه متهاكاً إلى
 مقعد في دائرة النور)

لارى : لقد ذكرت لك الحقيقة يا كيث .
 (كيث يخطو نحو شقيقه في لهفة فازعة ، ثم يحاول أن يستشف
 الحقيقة من نظرات لارى الزائغة الخائفة)

كيث : (في غضب ودهشة يتكلم بصوت خافت) بربك ما هذا الهراء ؟
 (يتوجه كيث نحو الباب ثم نحو النوافذ ليتحقق من أنها جميعاً
 مغلقة ، وليس هناك من يسترق السمع ، ثم يعود إلى شقيقه)
 كيث : حاول يا لارى أن تتمالك نفسك ، وإياك والمبالغة فيما تقول ،
 تم اذكر لي ماذا حدث بالضبط ،

لارى : (معترفاً ومؤكداً دون تحفظ) إنها الحقيقة . . . لقد قلت لك
إننى قتلت رجلاً .

كيث : (يستعيد هدوءه ، ثم يتكلم فى برود) إهدأ !
(لارى يرفع يديه ويحركهما فى يأس شديد - يفرع كيث
لما بدا على شقيقه من اليأس) .

كيث : (فى غضب وخوف واستياء) ولماذا حضرت إلى هنا ؟ ولماذا
تعترف لى بأمر خطير كهذا ؟

لارى : (فى ألم وعتاب) لمن أفضى بسرى إذن ، إذا لم أفض به إليك ؟ !
لقد حضرت للاستفسار منك عما يجب أن أصنع . . . أأسلم
نفسى لرجال الشرطة أم بماذا تنصحنى ؟

كيث : متى . . . متى . . . ماذا ؟ ! !

لارى : أمس مساء .

كيث : (مأخوذاً) يا إلهى ! كيف . . . أين . . . ؟ يحسن أن تفضى
إلى بكل شيء . . . اشرب هذه القهوة أولاً ، حتى تجلو ذهنك .
(يصب كيث لأخيه فنجالاً من القهوة فيشربه الأخير فى سرعة
عن آخره) .

لارى : (وهو يقص على شقيقه تفاصيل جريمته) لقد تعرفت إلى فتاة
بولندية كان قد توفى والدها وهى فى سن السادسة عشرة ،
وخلفها وحيدة ، فتلقفها وغد كان يقطن نفس المبنى الذى
تعيش فيه ، وتزوجها أو ادعى هذا ، ثم هجرها وهى حامل ،
ولكنها فقدت طفلها بعد أن أوشكت على الموت جوعاً ، فتلقفها

وغد آخر عاشت معه عامين ، حتى عاد الأول فظهر في أفق حياتها من جديد ، وأرغمها على العودة للعيش معه ، وقد اعتاد أن يضربها ضرباً مبرحاً ، يترك آثار القسوة على جسمها ، وعندما تعرفتُ إليها كان قد هجرها للمرة الثانية ، وكانت قد انحرفت عن الطريق السوى : كل هذا ولم تكن المسكينة قد تخطت سن العشرين ، فتعلقت بي كما لو كنت قد هبطت عليها من السماء ، وأخلصت لي كل الإخلاص كما أخلصت لها ، واستقام حالها تماماً إذ نهجت المسلك السوى ، وعندما ذهبت إليها في الليلة الماضية كان هذا الشيطان قد عثر عليها ثانية ، فما كاد يراني وكان ضخم الجثة فظ الطباع كأنه الوحش الكاسر ، حتى هاجمني وكال لي الضربات في عنف وقسوة ، فأمسكت بخناقه وأنا لا أكاد أتمالك نفسي من فرط الغضب ، وعندما فككت قبضة يدي عن حنجرته . . .

(يصمت لارى وتسقط يداه في يأس)

كيث : (يدعوهُ إلى الاستمرار) هيه . . . نعم ؟

لارى : (في صوت مخنوق) مات . . . مات يا كيث . . . لم أكن أعلم أنها تعلقت بثقلها عليه كيما تساعدني في الخلاص منه وإلحاق الهزيمة به . . .

كيث : (في صوت جاف أجش) وماذا صنعت حينذاك ؟

لارى : لقد جلسنا ، هي وأنا ، بجانب الجثة وقتاً طويلاً . . .

كيث : هيه . . . وماذا أيضاً ؟

- لارى : بعد هذا حملت الجثة على ظهري وخرجت بها إلى الشارع ،
ثم تخلصت منها في أحد المنحنيات .
- كيث : على أى بعد من المنزل ؟
- لارى : حوالى خمسين ياردة .
- كيث : هل رآك أحد ؟
- لارى : لا . . .
- كيث : كم كانت الساعة آنذاك ؟
- لارى : الثالثة صباحاً .
- كيث : وماذا بعد هذا ؟
- لارى : عدت إليها .
- كيث : (فى استهجان) ولماذا بحق السماء ؟
- لارى : (فى شبه اعتذار) كانت فرعة تعانى الوحدة . . . وكذلك كنت
أنا أيضاً يا كيث !
- كيث : أين المكان الذى تخلصت فيه من الجثة ، وأين تسكن هذه المرأة ؟
- لارى : إنها تقطن بالمنزل رقم ٤٢ ميدان بورو بحى سوهو . وقد تركت
الجثة عند ركن زقاق جلوف .
- كيث : (مأخوذاً ولكن فى بعض الاستبشار) يا إلهى ! لقد قرأت
تفاصيل هذه الجريمة بجرائد الصباح . . . ولقد كانوا يتحدثون
عنها بالمحكمة هذا الصباح . . . لابد أنك قرأتها مثلى بالصحف ،
ثم صور لك الوهم والخمر معاً أنك أنت الذى ارتكبتها .
- لارى : (فى أسى) ليت الأمر كان كذلك يا كيث .

كيث : ولماذا جئت إلى هنا وأطلعتني على هذا السر الرهيب بحق السماء . . .
ألا تعلم أنني مرشح للعمل بالقضاء ؟ !

لارى : (فى غير التواء) نعم أعلم هذا . . . ولكنك الوحيد الذى يمكنك
إرشادى إلى ما يجب على عمله . . . لم أقصد قتله يا كيث . . .
كنت أدافع عن الفتاة . . . إني أحبها . . . ماذا أصنع ؟

كيث : (ساخراً) تحبها !

لارى : (منفعلًا حانقًا) زوجها الخنزير الوحش ! إن مليوناً من الناس
يموتون كل يوم ، وليس بينهم من يستحق الموت مثله . . . ولكن
بالرغم من هذا أحس ثقل الجريمة هنا (يشير إلى قلبه) . . .
إنها تعصر هذا القلب عصراً يا كيث . . . بربك ساعدنى
يا أخى . . . قد أكون من طغمة الضالين ، ولكنك تعلم أنى لم
أؤذ فى حياتى ذبابة ما دام هذا فى طوقى . . . (يحنى وجهه بين
يديه) .

كيث : تجلد يا لارى وكن ثابتاً ! دعنا نفكر فى مخرج من هذا المأزق . . .
ألم تقل الآن إن أحداً لم يشاهدك وأنت تتخلص من جثة القتل ؟
لارى : كان المكان منزوياً والليل حالكاً .

كيث : متى تركت الفتاة بعد عودتك إليها ؟

لارى : حوالى الساعة السابعة .

كيث : وإلى أين ذهبت ؟

لارى : عدت إلى المنزل

كيث : بشارع فترزوى ؟

- لارى : نعم .
- كيث : وما الذى صنعتته منذ ذلك الحين ؟
- لارى : لا شئ سوى التفكير فى مصيرى .
- كيث : ألم تغادر المنزل قط بعد عودتك الأخيرة إليه ؟
- لارى : لا . . .
- كيث : ألم تخرج لرؤية الفتاة ؟ (لارى يهز رأسه بالنفى) .
- كيث : أليس من المحتمل أن تكشف الفتاة سرى ؟
- لارى : محال .
- كيث : أو لا تصاب بالهستيريا فتعترف بالجريمة وتهذى بالتحدث عن نفسها وعنك ؟
- لارى : لا . . .
- كيث : من يعرف الصلة التى بينكما ؟
- لارى : لا أحد .
- كيث : هل رآك أحد تلج منزلها لدى زيارتك لها مساء أمس ؟
- لارى : لا . . . فهى تسكن بالدور الأرضى ومعى مفاتيح لمسكنها .
- كيث : (وهو يمد يده) هاتها
- (يخرج لارى مفتاحين من أحد جيوب سترته وسلمهما لشقيقه) .
- لارى : (وهو يهم بالوقوف) لن أستطيع يا كيث أن أقطع علاقتى بها .
- كيث : (فى ازدراء) إيه . . . فتاة كهذه ؟ !
- لارى : (فى غضب) نعم . . . فتاة كهذه !
- كيث : (مشيراً إليه بيده كما يهدأ) ماذا تحمل أيضاً مما يكشف عن

علاقتك بها ؟

لارى : لا شيء .

كيث : وفي مسكنك . . . ألا يوجد شيء من هذا القبيل ؟

لارى : لا شيء .

كيث : صور ؟ خطابات ؟

لارى : لا . . .

كيث : أوافق أنت مما تقول ؟

لارى : نعم .

كيث : وهل لم يلمحك أحد داخلًا منزلها لدى عودتك بعد تخلصك من الجثة ؟

لارى : (يهز رأسه علامة النفي) .

كيث : ولا عندما تركتها في صباح اليوم التالي ؟ لا يمكن أن تتأكد من شيء كهذا . . .

لارى : (مؤكدًا) . . . أنا متأكد أن أحداً لم يرفى .

كيث : (وقد انفرجت أساريره قليلاً) إنك إذن لسعيد الطالع . . .
اجلس يا رجل . . . لا بد لي من التفكير في الأمر . . .

(يجلس لارى ويروح كيث يعصر ذهنه) .

كيث : (كما لو كان يخاطب نفسه) هذا بشع !

لارى : (يتنهد في أسى) أجل . . . هذا بشع دون شك !

كيث : هل كانت هذه هي المرة الأولى التي عاد فيها الزوج إلى الظهور بعد غيبته الثانية ؟

- لارى : نعم .
- كيث : كيف اهتدى إلى محل إقامتها ؟
- لارى : لست أدري .
- كيث : هل كنت مخموراً عند ارتكاب الجريمة ؟
- لارى : لا . . . لم أكن مخموراً . . . كنت قد شربت قليلاً جداً .
- كيث : قلت إنك لم تقصد قتله . . . هل هذا صحيح ؟
- لارى : (فى صدق) الله يعلم صدق ما قلت .
- كيث : هذا أمر له اعتباره دون شك .
- لارى : (موضحاً) لقد بدأتى بالعدوان . . . ولم أكن أدري أنى قوى إلى هذا الحد .
- كيث : لقد تعلقت الفتاة برقبته كما قلت . . . هذا سيء ولعله السبب الأول !
- لارى : لقد فعلت هذا من أجلى . . . لقد أفرعها زوجها الوحش وتوهمت أنه سيقضى على .
- كيث : أتعنى أنها تحبك .
- لارى : (فى بساطة) نعم يا كيث .
- كيث : (دون مجاملة) أفى مقدور امرأة كهذه أن تحب ؟
- لارى : (محتدّاً) إنك شيطان متحجر القلب . . . لم لا ؟
- كيث : (دون اهتمام أو اكتراث لعواطف شقيقه) إنى أحاول الوصول إلى الحقيقة . . . إذا كنت تنوى معاونتى فى سبيل إنقاذك فلا بد أن أعرف كل شيء . . . ما الذى يجعلك تظن أنها شغوفة بك ؟

لارى : (فى ضحكة غيظ ملتأة) لأنها . . . لأنها شديدة التعلق بى .
يا سيادة المحامى الكبير !

كيث : (فى صلابة وجفاف) إنى أتكلم عن الحب ، عاطفة الحب !
لارى : (فى شراسة) وكذلك أنا . . . ألم تلتقط فى يوم ما كلباً من
كلاب الطريق الضالة . . . ؟ ! لقد أحببته فى وفاء جم كما
يحب الكلب الضال من يعثر عليه ويحسن إليه . . . فبادلتها
حباً بحب ، إذ التقط كل منا الآخر لأنى كنت ضالاً مثلها . . .
لقد كان فيها نجاتى من التشرد والقنوط .

كيث : (يهز أكتافه دون اكتراث ويغير مجرى الحديث) ما الذى
جعلك تختار ذلك المنحنى الذى تركت فيه الجثة ؟

لارى : (مستعيداً بعض هدوئه) كان هو أول مكان مظلم صادفته .
كيث : هل كان يبدو على وجه القتل علامات من كُتمت أنفاسه ومات
مختنقاً ؟

لارى : (فى فزع) كفى !

كيث : (مصراً فى غير إشفاق) أجب .

(لارى يومئ برأسه بالإيجاب)

كيث : (مسترسلاً) هل جمحظت عيناه وتشوهت سحنته كثيراً ؟

لارى : (فى استخذاء) نعم .

كيث : هل يسهل التعرف عليه بعد هذا التشويه ؟

لارى : (فى إعياء) لا أدرى .

كيث : عندما كانت هذه الفتاة تقيم مع القتل لآخر مرة - أين كانا يقمان ؟

- لارى : فى بيمليكو على ما أظن .
- كيث : ليس فى سوهو ؟
- (يهز لارى رأسه بالنفى)
- كيث : ما المدة التى قضتها الفتاة فى سوهو ؟
- لارى : حوالى عام واحد .
- كيث : وهى تعيش على هذا النهج ؟
- لارى : إلى أن لاقتنى .
- كيث : إلى أن لاقتك ؟ أو تعتقد ————— ؟
- لارى : (مبحلقاً فى احتجاج واستنكار) كيث !
- كيث : (وهويسكته بإشارة من يده) ألم تغير هذا المسكن ؟
- لارى : لا . . .
- كيث : ماذا كان عمل القليل ؟ بلطجى محترف ؟
- (لارى يومئ برأسه بالإيجاب)
- كيث : أظهر أنه يقضى معظم وقته خارج البلاد ؟
- لارى : أظن ذلك .
- كيث : أتعلم ما إذا كان معروفاً لرجال الشرطة ؟
- لارى : لم يصل هذا إلى سمعى
- (يذرع كيث الحجرة جيئة وذهاباً ثم يقف أمام مقعد لارى ويستأنف الكلام) .
- كيث : والآن اصنع إلىّ يا لارى . . . عندما تغادر هذا المكان توجه رأساً إلى المنزل وامكث به حتى آذن لك بالخروج . . . أتعدنى بهذا ؟

لارى : أعدك .

كيث : ألوعدك أية قيمة ؟

لارى : (فى إحدى ومضات ذهنه) ولما كان مخلصاً كالهواء ،
رجراجاً كالماء ، فقد كان فى طريقه صوب الفناء !

كيث : بالضبط ولكن إذا كان لابد أن أعاونك ، فعليك أن
تعمل وفق ما أشير به عليك ، ولابد أيضاً من بعض الوقت كيما
أتدبر الأمر للانتهاء إلى حل ما ألدك مال تصلح به من
شأنك ؟

لارى : لدى منه القليل .

كيث : لا تهتم سأدبر لك الأمر .

لارى : (فى انكسار) ما أشد طيبتك يا كيث إنك شديد الحذب
على - الواقع أننى لا أدري لهذا سبباً .

كيث : (ساخراً) هذه إحدى بركات علاقة الشقيق بشقيقه ، والواقع
أننى لا أفكر الآن إلا فى نفسى وفى مصالح الأسرة ، ف الجريمة
القتل التى ارتكبتها لن يلحقك وزرها فحسب ، بل فيها دمار
الأسرة وبش المصير يا إلهى ! لقد جعلت منى شريكاً
متستراً عليك فى هذه الجريمة ! أنا أنا الذى أقسمت على
احترام القانون وخدمة العدالة ، والذى سأكون فى كرسى
القضاء هذا العام أو الذى يليه ، فأفصل فى مثل قضيتك هذه !
وحق السماء لقد أسرفت يا لارى فى استغلال علاقتك بى .

لارى : (وقد أخرج من جيبه صندوقاً صغيراً) كان الأفضل لى لو أننى

حسنت الأمر دون تردد .

كيث : (منزعجاً) أيها الأبله ! سلمني هذا الصندوق !
 لارى : (فى ابتسامة غريبة باهتة) لا . . . (يتناول من الصندوق حبة
 بين الإيهام والسبابة) أى سحر يا كيث ! واحدة فقط -
 وليفعلوا بك ما يشاءون فلن تدرى من الأمر شيئاً . . . هذا
 يجعلك تهزأ بكل ألوان التعذيب . . . يا للراحة العظمى التى
 تضيفها . . . أتريد واحدة تحتفظ بها للطوارئ ؟

كيث : (فى تودد) كن حصيماً يا لارى . . . سلمني هذا الصندوق .
 لارى : (يعيد الصندوق إلى جيبه) هذا غير ميسور . . . إنك لم تقتل
 إنساناً قط (يطلق ضحكة ملتاثة) لقد صادفتى الحظ مرة
 فى نابولى إذ كدت أقتل سائق عربة راح يضرب حصانه فى
 قسوة . . . أما هذه المرة . . . يا إلهى ! (يغطى وجهه بيديه -
 يتوجه كيث إليه ويضع يده على كتفه فى رفق) .

كيث : تشجع يا لارى !

(لارى يتطلع إلى شقيقه)

لارى : حسناً يا كيث . . . سأحاول .

كيث : لا تبرح المنزل . . . كف عن الشراب . . . لا تثرثر . . . وأخيراً
 تحامل على نفسك واستعد هدوءك .

لارى : (فى طريقه إلى الباب) لا تدعنى أنتظرك أكثر مما تستدعى
 الظروف .

كيث : لا . . . اطمئن . . . فقط يجب أن تعتصم بالشجاعة !

(يخرج لارى متخاذلاً بادی القنوط) .

كيث : (يخاطب نفسه) يعتصم بالشجاعة ! يا إلهي ! إنما أنا الذى تعوزنى هذه الشجاعة !

يسدل الستار على هذا المنظر ، فإذا ما كان مساء اليوم التالى فى الساعة الحادية عشرة ، اتجه كيث إلى محل إقامة (واند) صديقة لارى وزوج القتل ، فى سوهو ، حيث يجدها بمفردها فى حالة انزعاج شديد ، فيطرق عليها الباب ولكنها لا تفتحه من فرط خوفها ، وحينئذ يستخدم كيث المفاتيح التى سبق أن سلمها له شقيقه لارى ، ثم يلج الحجرة التى كانت واند فيها ، فتتهم أنه لارى أتى إليها كمألوف عادته ، وتروح تناديه وقد سرى عنها ، ولكنها ما تكاد تسمع صوت كيث حتى يستولى عليها الفزع ، وأخيراً تطمئن عندما يخبرها أنه شقيقه وأنه قد حضر كيما يجد بمساعدتها وسيلة لإنقاذه من الورطة التى تردى فيها ، ومن ثمة يدور بينهما الحوار على النحو التالى :

كيث : لقد أفضى إلى لارى بكل شىء .

واندا : (وقد شبكت يديها حول ركبتيها) نعم ؟

كيث : أمر شنيع !

واندا : نعم . . . شنيع . . . أمر شنيع !

كيث : (مبتلعاً حواليه) فى هذه الحجرة ؟

واندا : حيث أنت واقف تماماً . . . كأنى أراه الآن وهو يسقط على الأرض .

كيث : (متأثراً برنة القنوط الرقيقة فى صوتها) يبدو أنك صغيرة السن

جداً . . . ما اسمك .

واندا : واندا .

كيث : هل أنت شغوفة حقاً بلارى .

واندا : إني على استعداد لأن أضحي بنفسى فى سبيله .

(فترة قصيرة من الصمت)

كيث : لقد حضرت لأرى ماذا تستطيعين عمله فى سبيل إنقاذه .

واندا : لا تحاول خداعى . . . هل أنت شقيقه حقاً ؟

كيث : أقسم لك على هذا .

(ثم يأخذ كيث فى استجواب واندا بطريقته القانونية البارعة إلى أن يطمئن تماماً أنها قد أعدمت كل ما من شأنه أن يكشف عن علاقتهما بشقيقه) .

كيث : هل تعلمين أين يسكن لارى ؟

واندا : نعم .

كيث : عليك إذن ألا تذهبي إليه ، وعليه هو الآخر ألا يأتى هنا لرؤيتك .

(تطأطئ رأسها ولكنها تقترب منه فجأة)

واندا : أستحلفك بالله ألا تحرمنى منه . . . إنه أملى فى الوجود !

(تأخذ يده بغتة وتقبلها ، ولكنه ينزعها منها فى امتعاض ويروح

يساومها على الابتعاد عن شقيقه وهو يغريها بمبلغ كبير من المال

كما تقطع علاقتهما نهائياً ، ولكن المسكينة تنحنى على قدمه

تريد تقبيلها كما يسمح لها بالعيش معه ، إذ لا حياة لها بدونه

على حد تأكيدها وحينئذ يسمعان طرقاتاً خفيفاً يعقبه صفير معين

ينبئ عن مجيء لارى فتندفع واندا نحو الباب فى لهفة كىما تفتحه
له وتعود به إلى حيث تركت كيث (

لارى : (يفاجأ بوجود كيث) . . . كيث !

كيث : (فى صرامة) أهذا هو مدي احترامك للوعد الذى قطعتة على نفسك ؟

لارى : لقد انتظرتك طوال اليوم ولم أستطع الانتظار إلى ما شاء الله !

كيث : (فى تهكم) بالضبط !

(ويطلب كيث من شقيقه أن يستعد بعد غد للسفر إلى الأرجنتين ،
مؤكداً له أنه سيعمل على أن تلحقه واندا عقب سفره فوراً ،
وفى أثناء الحديث يذكر كيث أن رجال الشرطة - لحسن حظ
لارى - قد قبضوا على متشرد بتهمة القتل إذ عثروا معه على
خاتم كان فى أصبع القتيل ، وكان كيث يتوقع أن يقابل شقيقه
هذا النبأ بالسرور ، ولكنه وجم لدى سماعه ، وأصر على ألا يغادر
البلاذ حتى يطمئن إلى أن هذا المتشرد المنكود الحظ لن يؤخذ
بجريرته ، ومن ثم فقد رفض أن يستلم المبلغ الكبير الذى أعده
كيث لترحيله خارج البلاذ ، فلم يجد الأخير محيصاً عن تركه
مع واندا بعد أن جعله يقسم على ألا يتخذ أية خطوة فى هذا
الشأن إلا بعد الرجوع إليه والاسترشاد برأيه) .

(بعد خروج كيث)

لارى : رجل برئ يؤخذ بجريرتى ! . . . محال !

واندا : ولكنك أنت الآخر برئ . . . هل كنا نبغى قتله . . . أبداً . . .

وإذن فلننس !

لارى : (فى أسى مكتوم) أجل فلننس ونهنا ولنكن أقوياء مثل كيث !
(ولكن لارى يبدو أبعد ما يكون عن السعادة والنسيان)

واندا : سنكون سعداء معاً يا لارى .

لارى : (ينظر إليها فى حنان) أيها الطفلة المسكينة . . . عندما يحين
الحين سنموت معاً !

واندا : (فى بساطة وصدق) بلى . . . إذا أصابك مكروه فلن أستطيع
الحياة من بعدك !

(يسدل الستار وبعد شهرين من تاريخ هذا المنظر ، قبيل الغروب
من أحد أيام يناير ، تتطلع وندا من نافذة غرقها المطلة على أشجار الشتاء
العارية ، وقد راح أحد باعة الصحف ينادى بصوت مرتفع معلناً عن
إصدار قرار المحلفين فى جريمة المشرذ الذى قبض عليه متهماً بقتل زوجها . . .
تهم وندا باستدعاء بائع الصحف ولكنها لا تفعل بل تغلق النافذة ثم
تخف إلى باب المنزل وتفتحه فتفاجأ بكيث مقبلاً فتعود أدراجها وهو يتبعها
إلى داخل الحجرة) .

كيث : أين لارى ؟

واندا : توجه لحضور المحاكمة . . . لم أستطع منعه . . . ماذا تم فيها
يا سيدى ؟

كيث : أدين . . . صدر الحكم بالإعدام . . . أغبياء ! بلهاء !

واندا : بالإعدام ! (تبدو كما لو كان سيغمى عليها) .

كيث : أيتها الفتاة . . . قد يتوقف الأمر كله عليك . . . ألا يزال لارى

يعيش معك هنا ؟

- واندا : نعم .
- كيث : لا بد لي من انتظاره .
- واندا : ألا تفضل بالجلوس .
- كيث : (يهز رأسه ويسترسل في الحديث) هل أنت مستعدة للسفر في أى وقت ؟
- واندا : نعم ، نعم . . إلى دائماً مستعدة .
- كيث : وهو ؟
- واندا : نعم . . ولكن الآن - ماذا سيفعل هذا الرجل المسكين !
- كيث : (في استهجان) أتقصدين هذا الغول سارق الموتى ؟
- واندا : (في عطف) لقد كان المسكين يتضور جوعاً . . أنا نفسى عانيت من الجوع طويلاً . . وان الإنسان ليفعل حينذاك ما لا يريد أو ينوى فعله قط . . لقد كان لارى دائم الاكتئاب من أجله طوال هذه المدة . . ماذا يمكن عمله إذن ؟ !
- كيث : اصغى إلى . . عاونينى . . لا تدعى لارى يغيب عن ناظرك . . . أنا واثق أنه لن ينفذ حكم الإعدام في هذا المشرذ التعس . . . (يقبض على ذراعها) . . والآن يجب أن نمنع لارى من الاعتراف بجرمه . . إنه أحمق ولا يبعد أن يفعل هذا . . أتفهمين ؟
- واندا : نعم . . ولكن لماذا لم يأت حتى الآن . . يا إلهى ! لشد ما أخشى -
- كيث : (مقاطعاً) لا . . . أعتقد تماماً أنه لا بد سيراك قبل أن يتخذ أية خطوة بهذا الخصوص

﴿ يسمعان مفتاحاً يوضع بقفل الباب . . يدخل لارى حاملاً باقة كبيرة أنيقة من أزهار الزنبق والرجس دون أن يكشف وجهه عن آية انفعالات إذ يبدو طبيعياً .

لارى : كيث ! وإذن فقد رأيت مأساة هذا التعس ؟

كيث : نعم ولكن ثق أنى سأنقذه . . فقط يجب أن تعطينى الوقت الكافى يا لارى .

لارى : ﴿ فى هدوء ﴾ لازلت تحرص على سمعتك يا كيث ؟

كيث : ظن كما تشاء . . كل ما يهمنى أن تقسم لى أنك لن تسلم نفسك دون علمى .

لارى : ﴿ فى صدق ﴾ أقسم لك يا كيث

﴿ يخرج كيث بينما يلتقى لارى عليه نظرة مليئة بالمعانى وتداعب مشغفيه ظل ابتسامة هادئة ولكنها غريبة ﴾

واندا : ﴿ وهى تلاصقه فى حنان متسائل ﴾ ماذا تعنى ؟

لارى : ﴿ متغافلاً سؤلها ﴾ العشاء يا صغيرتى - لم أذق الطعام أو الشراب طوال النهار . . ضعى هذه الزنابق فى الماء .

﴿ تتناول واندا الزنابق وتضعها فى زهرية إطاعة لأمره . . يصب بعض الخمر فى كأس كبيرة ويشربها دفعة واحدة ﴾

لارى : أطيع أيام حياتى قضيتها معك هذين الشهرين يا واندا !

واندا : ﴿ فى يأس ﴾ أواه يا لارى . . عدنى يا لارى أن أذهب معك حيثما

تذهب . . أتظن أننى لم أفطن إلى ما تنوى عمله ؟ . . لا تستطيع أن تمنحنى غنى شيئاً . . سندهب معاً . . معاً يا لارى ! فى النور

الساطع أو الظلام الدامس . . ولكن ألا يمكن -

لارى : لا يا واند . . لا يمكن أن أنكص ولكن مادمت تشائين فسندهب معاً .

واندا : لشد ما أخشى سكرات الموت يا لارى . . هل سنتألم كثيراً ؟

لارى : (فى صوت مختنق) لا ألم يا صغيرتى .

واندا : (وهى تتنهد) نضيع شبابنا . . يالللخسارة !

لارى : لو أنك شاهدت عذاب المسكين المنكود الحظ لما ترددت . .

ولكننا سننأى عن هذا كله . . (وقد صعدت الخمر إلى رأسه) . .

سندهب إلى الظلمة ونحن طلقاء متحررون . . أجل ، متحررون من

صغائر البشر الملعونة . . لشد ما أبغض هذا العالم ! أمقته !

أمقت ما فيه من وحشية كافرة ، ومن خيلاء واستغراق فى لذائد

الحياة ! . . عالم كيث بما فيه من صلاح مزعوم وصرامة وتوفيق !

ولذلك فنحن ، أنت وأنا ، لا نصلح لهذا العالم - إذ ألقى بنا فيه

عند مولدنا وقد أعوزتنا الصلابة وقوة العزيمة ، ولذلك حق علينا

الموت . . لا تخف يا كيث فإن ما أقوله الآن لن يسمعه أحد

قط ! (يملأ الكأسين خمرًا ويقدم إحداهما لواندا ويحتفظ

بالأخرى لنفسه) . . اشربيها يا واند حتى الثمالة !

(تطيعه فى الحال ويشربان معاً)

لارى : يا إلهى ! يعلق من رقبتة حتى يموت ، لجرم أنا الذى ارتكبته !

(يعب لارى الخمر عباً ثم يتناول العشاء هو وعشيقتة بعد أن يحرر

خطاباً يعترف فيه بجريمتة ويطلب أن يدفن هو وهى معاً ، وأخيراً

يخرج الصندوق الصغير من جيبه ويتحسسه ثم يتناول منه أربع حبات لا تتحارهما . . يعود كيث ليجد الاثنين جثتين هامدتين (كيث : (وقد استوثق من وفاتهما) . . يا إلهي !

(يلمح ورقة قد شبكت بدبوس في مكان ظاهر من الفراش . . يتناولها في لهفة ويقرأ منها بصوت مرتفع ما يلي : « أنا لورنس دارانت على وشك أن أنتحر بمحض إرادتي أعترف أنني - . . . يواصل القراءة في سره وقد بدا عليه الفزع . . . ينتهي من القراءة . . . يدع الورقة فتسقط منه على الأرض . . . يجلس متهاكاً على أقرب مقعد منه . . . وبغثة يقول : « لو أنني تركت هذا الاعتراف هنا فإن اسمي ، ومستقبلي بأكمله ! . . . » وأخيراً وبعد صراع مع نفسه يتناول اعتراف شقيقه وعمزقه وهو يقول : « إن في هذا الاعتراف لقضاء على - لا ، فليشنق ! فليشنق ! . . . ويسدل الستار وتختتم المسرحية الصغيرة . . .)

ويبدو أن هذه المسرحية الصغيرة لم تكن سوى تجربة بدائية في مستهل حياة الكاتب الكبير الأدبية ، ولذلك جاءت الفكرة فيها حائرة غير واضحة المعالم ، تتعارض إلى حد غير قليل مع مبادئه ورسالته الأخلاقية التي ظل طوال حياته يبشر بها ويدعو إليها . . فالانتحار رذيلة دون شك إذ هو يكشف عن همة ضعيفة خائرة ووهن أخلاقي شديد وكفر برحمة الله جل وعلا ، ولكن جلزوردي قد انزلق في هذه المسرحية حتى بدا كما لو كان يدعو إلى الانتحار كوسيلة للتخلص مما في هذا العالم من مساوئ وشرور ،

وهذه دعوة منحلة خطيرة إذ فيها تشييط للعزم وتوهين للإقدام والعمل المثمر الكريم .

بيد أنه قد يهون من مسئولية الكاتب في هذا الشأن ، أن هذه المسرحية من بواكير إنتاجه ، فلم يكن قد استبان تماماً حدود الحق والباطل كما لم تكن قد اتضحت في ذهنه خطوط رسالته الأخلاقية ، وبالرغم من هذا فقد تألفت بها ، بين الفينة والفينة ، ومضات إنسانية مشرقة ، فاعتراض لارى على العالم الذى يؤمن به شقيقه كيث - كما جاء في سياق الحوار - إنما هو تصغير لشأن المال الذى يستعبد صاحبه ، وبذلك يصبح وبالا على المجتمع والإنسانية معاً ، وتحقير للألانية التى تدفع صاحبها إلى أن يشق طريقه في الحياة على أشلاء أولئك المنكودين الذين جانبهم الحظ وتخطاهم التوفيق ، ونداء مدوى للناس يهتف بهم كيما يقيموا المحبة بينهم مقام القانون .

ولقد رأيت لزماً على أن ألخص هذه المسرحية حتى أعطى فكرة كاملة عن الكاتب الكبير في حالى إشرافه وأفوله ، وتوفيقه وإخفاقه سواء بسواء ، حتى أبين أدوار تطور الرسالة في ذهن الكاتب ، هذه الرسالة الأخلاقية التى آمن بها وراح يدعو إليها في الحاجة والحاف وإلحاح : رسالة المحبة والتسامح وإنكار الذات .

على أن هذه المسرحية ، كما هو واضح من سياقها ، لم تخل من أسس هذه الرسالة العظيمة ، فهى واضحة المعالم بها ، ولم يبدُ النقص إلا في طريقة معالجة الكاتب لهذه الرسالة وفي الوسيلة التى لجأ إليها لتوضيحها وتدعيمها في ذهن المتفرجين والقراء جميعاً ، وكذلك في اختيار أشخاص

المسرحية الذين يرمزون إلى المبادئ التي يستهدف الدعوة إليها ، فلم يكن الكاتب موفقاً في اختياره لشخصية لارى الخائر الهمة المشبط العزم كيما يمثل شخصية البطل الإنسانى الذى ينبرى للدفاع - بشقشقة اللسان فحسب - عن المنكودين البائسين الذين غبنهم المجتمع الجائر فباتوا من المنبوذين والمنبوذات والمشردين والمشرذات وراحوا يضربون فى فيا فى الأرض على غير هدى دون ذنب جنوه أو جرم ارتكبوه ، اللهم إلا إذا كان الفقر ذنباً لا يغتفر وجراً لا محيى لصاحبه عن أن ينكل به تنكيلاً ، وأن يعاقب على فقره وحرمانه بأشد ألوان العذاب والهوان .

مسرحية الهزيمة

لم يقصر جلزورذى كتابته على القصة الطويلة ، متل قصة أسرة فورسايت البطولية »

«The Forsyte Saga» التى أربت على الألف صفحة ، ولا على المسرحيات المتعددة المناظر والفصول ، مثل عشرات المسرحيات التى سبق ذكرها ، ولكنه كتب أيضاً التمثيليات ذات الفصل الواحد ، التى يدور فيها الحوار ، طوال هذا الفصل ، على شخصين اثنين لا ثالث لهما ، يعالجان من خلالها قضية هامة من قضايا الفكر ، فى تعمق خال من الجفاف ، وفى رصانة بعيدة عن التزمّت ، وفى متعة مبرأة من كل ضروب الضحالة والفعجاجة والحواء ، ولعل تمثيلية « الهزيمة » التى وضعها جلزورذى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) أفضل مثال لهذا الضرب من الإنتاج المسرحى المركز ، الذى لم يعالجه غيره من الكتاب المسرحيين ، إلا بعد وفاته بوقت غير قليل .

ويدور الحوار ، فى هذه التمثيلية القصيرة ، بين ضابط شاب عاد من ميدان القتال ، بعد إصابته بجرح شديد ، استلزم نقله إلى العاصمة ، للعلاج بأحد مستشفيات لندن ، ولقضاء فترة النقاهة مع أسرته ، وبين فتاه ألمانية فقدت والديها وأشقاءها فى هذه الحرب ، فنجت بنفسها من بلدها حيث يدور رحي القتال ، إلى لندن تلتمس العيش الكريم ،

فعانت في سبيل ذلك الأمرين ، وهى الآن تشعر بالضيق وسط مجتمع ملئ بالمرارة والحقد ضد شعبها الذى زج بالعالم إلى أتون هذه الحرب الضروس .

الحوار

- الضابط : هيه ! .. ماذا بك ؟ .. لقد كنت تبكين حين لاقيتك .
 الفتاة : (وقد تماكنت نفسها) أوه ! .. لا شيء .. إنه تأثير المساء الجميل .. هذا كل ما فى الأمر .
 الضابط : (شاخصاً إليها ببصره) لا تبتشى !
 الفتاة : (تخلع قبعتها وخمارها - شعرها مجعد يميل لونه إلى الاصفرار) لا أبتش ! إنك لا تعانى من الوحدة مثلى .
 الضابط : (يتجه نحو النافذة وهو يعرج فى سيره ثم يقول فى تردد) ولكن .. كيف .. كيف ترديت إلى هذا الحد ؟ .. ألا تتسم هذه الحياة التى تعيشونها بالقنوط ؟
 الفتاة : نعم ، هى كذلك .. هل أصبت بالميدان ؟
 الضابط : لقد غادرت المستشفى اليوم فقط .
 الفتاة : يا للحرب البشعة ! .. إنها سبب كل فجيعة .. متى ستنتهى ؟
 الضابط : (يتفرس فيها وهو متكئ على النافذة) على فكرة .. ما هى جنسيتك ؟

الفتاة : (تلقى عليه نظرة خاطفة ثم تجيبه في لكنتها الأجنبية) روسية الضابط : حقاً ! . . لم أقابل فتاة روسية من قبل .

(تلقى عليه الفتاة نظرة خاطفة أخرى) أخبريني ، هل ساءت الحال إلى الحد الذي يصورونه ؟

الفتاة : (مراوغة) الأمر يتغير حين أحظى بصحبة شاب لطيف مثلك ، ولكنى لم أكن حسنة الحظ (تبسم ، وهى فى ابتسامها ، كما هى فى حديثها ، متريثة ، سمحة ، خالية من الالتواء) لقد توقفت عن السير وعرجت على إذ رأيتى حزينة ، أما الآخرون فلا يهتمون بى إلا حين أكون مرحة مبتهجة . . لست شغوفة على الإطلاق بالرجال . . إنك تمجهم حين تعرفهم .

الضابط : أكبر الظن أنك لم تعرفهم حين يحزب الأمر ، فيبدون فى أكمل صورة . . ولا يتيسر لك هذا إلا إذا شاهدتهم فى الخنادق . . وحق السماء ! . . إنهم عندئذ يبدون جميعاً - ضباطاً وجنوداً - فى أروع صورة . . صورة باهرة صادقة للتضحية وإنكار الذات .

الفتاة : (تحديق فيه بعينها الزرقاوين الرماديتين) أعتقد أنك لم تكن فى المؤخرة حين جد الجد ، بل إنك لترى فيهم بعض عناصر تكوينك .

الضابط : أوه ، ليس الأمر كذلك على الإطلاق . . لقد جافاك الصواب ! . . أؤكد لك أننا حين قمنا بالهجوم ، الذى

جرحته خلاله ، لم يكن ثمة فرد واحد بفرقتى إلا وقد أثبت أنه من الأبطال حقاً . . إن الطريقة التى عمدوا إليها - غير مبالين قط بسلامة أنفسهم - كانت رائعة !

الفتاة : (فى صوت غريب) لعل الموقف كان مماثلاً أيضاً لدى - الأعداء

الضابط : أوه ، نعم ! أعرف ذلك .

الفتاة : آه ! . . لست رجلاً خسيساً . . لشدة ما أكره الأخساء !

الضابط : أوه ! الواقع أنهم ليسوا أخساء . . إنهم فقط لا يدركون .

الفتاة : أوه ! أنت طفل - طفل طيب - أأنت كذلك ؟

(يتجههم الضابط الشاب ويعبس لعدم رضائه عن هذا

النعت - يبدو الانزعاج على وجه الفتاة)

الفتاة : (فى تشبث بفكرتها) ولكنى أحبك من أجل ذلك . . إنه

لمن الحسن التعرف إلى شاب لطيف مثلك .

الشاب : (فجأة) بخصوص شعورك بالوحدة - أليس لك أى أصدقاء

روس ؟

الفتاة : (متدوهة) روس ؟ لا (فى عجلة) لندن فسيحة الأرجاء . .

هل كنت بالحفلة الموسيقية قبل أن تخاطبنى ؟

الضابط : نعم

الفتاة : وأنا أيضاً . . إنى أحب الموسيقى .

الضابط : أظن أن جميع الروسيين يحبون الموسيقى .

الفتاة : (وهى تلقى عليه نظرة أخرى خاطفة) إنى أذهب هناك دائماً

عندما يتوفر لدى المال .

الضابط : عجباً ! . هل تعانين من الضيق المالى إلى هذا الحد ؟

الفتاة : حسناً إن كل ما أمتلكه الآن شلن واحد .

(تضحك فى مرارة - ضحكها يضايقه - يجلس على قاعدة النافذة ، ويميل إلى الأمام صوبها) .

الضابط : هيه . . ما اسمك ؟

الفتاة : ماى . . حسناً ، هكذا أسمى نفسى . . لا جدوى من الاستفسار عن اسمك .

الضابط : (ضاحكاً) إنك فتاة شديدة الارتياب بالناس . . أأنت كذلك ؟

الفتاة : ألا ترى أن لدى ما يبرر ذلك ؟

الضابط : نعم ، أعتقد أنك حريه بأن تتوهى أننا جميعاً وحوش .

الفتاة : (تجلس فوق مقعد ملاصق للنافذة حيث تقع أشعة القمر

الفضية على خد مغطى بالمساحيق) حسناً ، لدى عدة أسباب

تجعلنى خائفة فى كل وقت . . بل إنى الآن شديدة الهلع ،

إذ لا أثق بأى إنسان . . أظن أنك قتلت الكثيرين من الألمان ؟

الضابط : لا يتيسر لنا أبداً أن نعرف ذلك إلا إذا التحمنا بالعدو وقتلناه وجهاً لوجه ، وهذا الضرب من القتال لم أصادفه بعد .

الفتاة : ولكنك كنت ستسر كثيراً لو أنك قتلت بعضهم .

الضابط : أوه ! . . أسر ؟ لا أظن ذلك ، فنحن جميعاً ، بهذا الصدد ،

فى زورق واحد . . نحن لا نسر بأن يقتل أحداً الآخر - أو

هذا ما يراه السواد الأعظم منا . . إننا نؤدى وظيفتنا ، هذا كل ما فى الأمر .

الفتاة : أوه ، هذا مرعب ! . . أظن أن أشقائى قد قتلوا جميعاً .

الضابط : ألا تصلك أية أنباء ؟

الفتاة : أنباء ؟ لا ، بالتأكيد ، لا أنباء عن أى إنسان فى بلادى ،

لعلّى الآن بلا وطن ، فقد فقدت جميع من كنت أعرفهم :

أبى وأمى وأشقائى وشقيقائى ، لن أراهم قط طوال حياتى ،

حين تنشب الحروب تتقطع نياط القلوب (تصدر صوتاً

يكشف عن غضبها) أتعرف فيما كنت أفكر حين عرّجت

على ؟ . . كنت أفكر فى مسقط رأسى ، والنهر فى أشعة

القمر . . لو أنى رأيته مرة أخرى لابتهجت . . هل شعرت

يوماً ما بالحنين نحو الوطن ؟

الضابط : نعم ، ساورنى هذا الحنين - فى الخنادق . . ولكن المرة

ليشعر بالخجل - مع الآخرين جميعاً .

الفتاة : آه ! نعم ، نعم ! فجميعكم رفاق هناك ، ولكن ما رأيك

فيمن هم مثلى هنا ، حيث يبغضنى ويحتقرنى الجميع ، وقد

يقبضون علىّ ويقذفون بى إلى السجن .

(يعلو صدها ويهبط)

الضابط : (يميل إلى الأمام ويربت يده على ركبته) آسف . . آسف .

الفتاة : (فى صوت مختنق) إنك أول من ترفقوا بى منذ عهد بعيد ! . .

سأفضى إليك بالحقيقة . . أنا لست روسية . . أنا ألمانية !

الضابط : (مبجلقاً) يا فتاتى العزيزة ، من الذى يهتم بذلك ؟ . . إنا لا نقاتل النساء .

الفتاة : (تنعم النظر إليه) رجل آخر قال لى ذلك يوماً ما ، ولكنه كان يفكر فى متعته ، أما أنت فشاب لطيف جداً ، ولشد ما أنا سعيدة بلقائك ، فأنت ترى الجانب الطيب من الناس . . أليس كذلك ؟ . . هذا أول شىء فى العالم ، ذلك لأنه فى الواقع ليس ثمة خير كثير فى الناس ، كما تعلم .

الضابط : (مبتسماً) لشد ما أنت متشككة ساخرة ، أجل إنك كذلك دون سلك !

الفتاة : متشككة ساخرة ؟ كم عام تظن أن عمرى سيطول إن لم أكن متشككة ساخرة ! لولا ذلك لعمدت إلى الانتحار فى الغد بطريقة . . قد يكون هناك قوم خيرون ولكنى لا أعرفهم .

الضابط : أما أنا فأعرف الكثيرين منهم .

الفتاة : (تنحنى نحوه) حسناً ، والآن هل حدث أيها الفتى اللطيف أن وقعت يوماً فى مأزق ؟

الضابط : لا أظن ذلك ؟ . . أعنى مأزقاً عسيراً حقاً .

الفتاة : كلا ، أظن أنك ، بهذا الوجه الصبوح ، قد تجنبت المآزق ، حسناً ، افترض أننى مازلت فتاة طيبة ، كما كنت يوماً ما . وأنتك اصططحبتنى إلى حيث تقيم أملك وشقيقاتك ، وقدمتنى لهن قائلاً : « هاكم فتاة ألمانية صغيرة ، عاطلة معدمة وحيدة » . . إنهن سيجيينك قائلات : « أوه ! يا للأسى !

فتاة ألمانية ! » ثم يذهبن ويغسلن أيديهن متبرئات .

(يحدق الضابط فيها وهو صامت)

الفتاة : هيه . . أفهمت

الضابط : (متمتماً) أنا واثق أن ثمة قوماً يقبلون .

الفتاة : لا ، إنهم لا يقبلون ألمانية حتى ولو كانت طيبة ، أضف إلى

ذلك أنني لا أود أن أسترد طبيتي - لن أكون مخادعة -

لقد تدربت على أن أكون رديئة المسلك - والآن ألا تنوى أن

تقبلني ؟

(تضع وجهها لصق وجهه ، فتزعجه عيناها ، ويرتد إلى

الوراء) .

الضابط : اعفنى من ذلك ! أرجوك ! (تركز عليه نظرها فى بحلقة

غريبة متسائلة) لعل هذه حماقة منى . . لست أدرى . .

ولكن ، هناك فى المستشفى ، الحياة مختلفة ، فهى ليست

خسيسة . . لا تسرفى فى اقترابك منى !

الفتاة : أوه ! أنت غريب - (تتوقف) أليس المساء بهيجاً ؟ لقد خلا

من المناطيد . . إنها حين تحترق - يا للموت الرهيب ! . . .

وجميع الناس يهللون . . هذا أمر طبيعى . . هل تحقدون

علينا حدّاً ؟

الضابط : (مستديراً فى حدة) نحقد ؟ لا أدرى .

الفتاة : أنا لا أحقد حتى على الإنجليز - إنى أحقرهم ، وأحتقر شعبي

أيضاً . . بل إنى أشد احتقاراً لقومى ، إذ هم الذين أشعلوا

هذه الحرب . . أوه ! أنا أعلم ذلك . . إني أحتقر جميع الشعوب ، فهم الذين جعلوا العالم هكذا شقياً ، إذ قتلوا المئات والألوف والملايين من الناس - قتلوهم جميعاً لغير ما سبب أو هدف . . أقاموا عالماً بغيضاً ، كل من فيه يكرهون بعضهم البعض ، ويلهثون بحثاً عن كل ما هو سيء في الوجود ، وهم الذين أفسدوا على طبيعتي وحياتي ، حتى لقد فقدت إيماني بكل شيء . بكل ما هو جميل وجليل في الوجود . . حتى بالله ورحمته ! من سخريات القدر أنني كنت أقوم ، يوماً ما ، بتدريس صغار الأطفال الإنجليز صلواتهم ، وكنت أطلع لهم فصولاً عن المسيح ومعجته للبشر ، وكان إيماني في جميع هذه الأمور راسخاً قوياً ، أما الآن فلست أؤمن بشيء على الإطلاق ، ذلك لأن الإيمان إنما هو غذاء الأغنياء والمنافقين . بودى أن أشتغل في مستشفى - أن أذهب لمساعدة الفتيان المساكين أمثالك ، ولكن المسؤولين لا بد سيقذفون بي من حالي ، لا لشيء سوى أنني ألمانية ، حتى ولو كنت من ملائكة الرحمة ، ونفس الشيء يحدث في ألمانيا ، وفي فرنسا ، وفي روسيا ، وفي كل مكان ! . . فهل تظن أنني أستطيع بعد ذلك أن أسترِدَّ إيماني بأي شيء في الوجود ؟ . . كلا ، دون شك . . أعتقد أننا حيوانات . . هذا كل ما في الأمر ! . . لعلك تتوهم أنني أعتقد ذلك لأن الحياة التي أعيشها قد أفسدتني ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فليس هذا

أسوأ ما فى الوجود . . صحيح أن الذين أتعرف إليهم من عامة الشعب لا يتسمون برقة الطبع مثلك ، ولكن هذه هى طبيعتهم التى جبلوا عليها ، ومع ذلك فهم يساعدوننى لأعيش ، وهذا أمر له أهمية عندى . . لا ، إنهم الرجال الذين يظنون فى أنفسهم أنهم عظماء طيبون ، ويشعلون الحرب بسم ألسنتهم وبالحقد الذى يملأ قلوبهم ، فيقتلوننا جميعاً - يقتلون الفتيان أمثالك ، ويلقون بالمساكين من الناس فى السجون ، ويفرضون علينا أن نعيش فى جو من الكراهية والبغضاء ، وجميع أولئك القوم العتاة الدمويين الذين يحررون فى الصحف - ونفس الشيء فى بلادى - هم نظرائهم ، حذوك النعل بالنعل . . إنه بسبب هؤلاء جميعاً أصبحت أعتقد أننا مجرد حيوانات أو أدنى .

(ينهض الضابط الشاب وقد بدت عليه التعاسة فى أجلى صورها - تتابعه الفتاة بنظراتها)

الفتاة : اغفر لى ثرثرتى أيها الشاب الطيب ، فلست أعرف أحداً أحادثه بمكنون قلبى . . إذا كنت لا تحب ذلك ، فنى استطاعنى أن أصمت صمت الجرذ .

الضابط : أوه ! استمرى . . تكلمى كما تشائين ، فأنا غير مرغم على الأخذ برأيك ، بل إني أخالفك فى هذا الرأى .

(تنتصب الفتاة هى الأخرى على قدميها ، وتستند إلى الحائط ، تقع عليها أشعة القمر فى ميل فتظهر ثوبها الأسود ووجهها

الأبيض - تستأنف الكلام ثانية في صوت ناعم ، متريث ،
يفيض بالمرأاة)

الفتاة : حسناً ، بربك قل أيها الفتى الطريف ، من أية طينة صنع هذا
العالم ، الذى يتعذب فيه الملايين لغير جريمة ارتكبوها على
الإطلاق ؟ . . خداع ونفاق ! ثرثرة جوفاء هو ما تقولونه أيها
الفتيان . . بل هراء دونه كل هراء ! فأنتم تقولون إنكم هناك ،
فى جبهة القتال ، جميعكم « رفاق » تتحلون بالبسالة ، ولا
تفكرون فى أنفسكم ! . . حسناً ، وأنا أيضاً لا أفكر فى
نفسى كثيراً . . فما الجدوى ؟ . . أصبحت الآن ضائعة . .
ولكنى أفكر فى قومى المقيمين بالوطن ، كيف يقاسون
وتكتنفهم الأحزان . . إني دائمة التفكير فى جميع المساكين
من الناس هناك ، وهنا ، الذين يفقدون أحباءهم الأعزاء ،
كما أفكر فى جميع أسرى الحرب التعساء ! أما يجدرى
أن أفكر فيهم ؟ وإذا فعلت كيف يتيسر لى أن أستسيغ عالماً
هذا شأن سكانه المعذيين ؟

(يقف الفتى دون حراك وهو يتطلع إليها مشدوهاً)

الفتاة : تطلع إلى ! . . لكل منا حياة واحدة سرعان ما تأتى إلى
ختامها . . حسناً ، أعتقد أن هذا من حسن الطالع .

الضابط : لا ، هناك ما هو أكثر من ذلك .

الفتاة : (فى رفق) آه ! تظن أن الحرب تخاض فى سبيل المستقبل ،
وأنكم تضحون بحياتكم من أجل عالم أفضل ؟ . . أليس كذلك ؟

الضابط : لا بد أن نقاتل حتى نتنصر

الفتاة : حتى تنتصروا ! . . وقومى يعتقدون ذلك أيضاً . . جميع الشعوب تعتقد أنها إذا انتصرت نعم العالم بحياة أفضل ، ولكننا نعلم جميعاً أن هذا غير صحيح ، وأن العالم سيزداد سوءاً دون شك .

(يستدير مبتعداً عنها ، ويتناول قبعته استعداداً للخروج -
تتابعه بصوتها)

الفتاة : لن يعينى من سينتصر . . لن أهتم لو لحقت الهزيمة شعبى . .
إلى أحتقر الجميع ، فهم حيوانات ، حيوانات ! آه ! . .
لا تنصرف أيها الفتى الطيب . . سأصمت الآن .

(يخرج بعض أوراق مالية من جيب سترته - يضعها على
المنضدة ، ويتجه نحوها)

الضابط : (وهويهم بالانصراف) سعدت مساء

الفتاة : (فى اكتئاب) أعازم حقاً على الانصراف ؟ ألا تحبى
حقاً ؟

الضابط : نعم ، أحبك .

الفتاة : ستنصرف إذن لأنى ألمانية ؟

الضابط : كلا

الفتاة : إذا لماذا لا تمكث معى قليلاً ؟

الضابط : (بهزة من كتفه) مادمت تصرين على أن تعرفى السبب ،
فاعلمى أن حديثك قد أزعجنى .

- الفتاة : ألا نفترق صديقين فتقبلنى ولو مرة واحدة ؟
- (ينحنى الشاب ويلمس جبهتها بشفتيه ، ولكن حين يهم بالابتعاد عنها ، تتعلق بعنقه ، وتضغط على فمه بفمها)
- الضابط : (يجلس فجأة وهو متجهم) اتركينى ! لا أريد أن أحس أننى واحد من وحوش البشر الضواري !
- الفتاة : (متضحكة) إنك قى عجيب ! ولكنك طيب جداً . .
- هذا لو تحدثت إلى قليلا ، فما من أحد يتحدث إلى . .
- أخبرنى ، أرايت الكثيرين من أسرى الحرب الألمان ؟
- الضابط : (متنهداً) كثيرين جداً
- الفتاة : أمنهم من كان من الراين ؟
- الضابط : نعم ، أظن ذلك .
- الفتاة : أكاوا شديدي الحزن ؟
- الضابط : بعضهم كانوا كذلك ، بينما كان هناك آخرون مبتهجون جداً لأسرهم .
- الفتاة : ألم تشاهد الراين قط ؟ سيكون رائعاً هذا المساء . . هناك سيرسل القمر نفس هذه الأشعة ، وفي روسيا أيضاً ، وفي فرنسا ، وفي كل مكان . . وستبدو الأشجار بهيجة كما تبدو هنا ، وسيقابل الناس فى ظلالها يتسامرون ويتبادلون القبلات كما يفعلون هنا سواء بسواء . . أوه ! أليست الحروب نتاج تفكير أحمتى ملثاث ؟ . . أليس السلام أعظم نعمة فى الوجود ؟ ! . . هل صغرت الحياة وهانت إلى حد التفريط

فيها على هذا النحو ؟

الشاب : ليس باستطاعتك أن تعرفي قيمة الحياة حتى تواجهي الموت . .
ولن تحسّي الحياة نا بضعة حية حقاً قبل هذه المواجهة . . وحين
يستولى على جماعة بأكملها منكن هذا الإحساس ، وتصبحن
على استعداد للتضحية بأرواحكن ، كل واحدة عن الأخرى ،
يعوضكن هذا الإحساس عن كل ما يتبقى من حياتكن
مجتمعات .

(يتوقف وهو يشعر بالخجل إذ ساوره مثل هذا الإحساس
أمام هذه الفتاة التي لا تؤمن بأي شيء) .

الفتاة : (برقة) كيف جرحت أيها الفتى اللطيف ؟
الضابط : حينما عمدنا إلى المهجوم في العراء ، أصابتنى أربع قذائف
دفعه واحدة .

الفتاة : ألم يستبد بك رعب شديد حين صدر إليك الأمر بالهجوم ؟
(يهز رأسه وهو يضحك) .

الضابط : كان أمراً عظيماً ! لقد ضحكنا حقاً في ذلك الصباح ، ولكن
الأعداء أصابوني أسرع جداً مما توقعت . . كانت خدعة !

الفتاة : (تتطلع إليه مشدوهة) ضحكتم ؟

الضابط : نعم ، وماذا تظنين كان أول شيء شعرت به في صباح اليوم
التالي ؟ . . شعرت بقائد فرقتي الشيخ ، منحنيّاً فوقى ،
يسقينى عصير الليمون . . لو قدر لك أن تتعرفى إلى
قائد فرقتي لرد إليك إيمانك بمعنويات الحياة ، فثمة شيء ،

كما تعلمين ، وراء كل هذا الشر . . ومع ذلك فليس باستطاعة المرء أن يموت سوى مرة واحدة ، وحبذا لو استشهد في سبيل الوطن ، فذلك أفضل !

(وجهها ، في ضوء القمر ، بعينين مركبتين ، تشع منهما نظرة غريبة جداً ، حتى لكانها من عالم آخر)

الفتاة : لا - أنا لا أومن بشيء . . حتى ولا بوطنى . . لقد مات قلبي !

الضابط : نعم . . تغنين هذا ، ولكن الأمر ليس كذلك ، كما تعلمين ، وإلا لما كنت تبكين حين لاقيتك .

الفتاة : أظن أنه كان باستطاعتي أن أعيش على هذا النحو لو لم يكن قلبي قد مات - أتسكع كل مساء في الطرقات ، ولا أسمع قط كلمة عطف واحدة . ولا أنبس ببنت شفة خشية أن أعرف بأنى ألمانية ؟ . . لا بد أنى سأدمن الخمر سريعاً ، وعندئذ أصبح « عاطلة » عن كل كسب . . ها أنت ترى أنى عملية لا أصبح مع الخيال ، بل أرى الأشياء في وضوح . . صحيح أننى عاطفية قليلاً هذا المساء ، فالقمر رائع كما تعلم ، ولكنى الآن أحيا لنفسي فقط ، غير مكترثة بأى شيء ، أو مهتمة بأى إنسان .

الضابط : هذا لا يغير من الواقع شيئاً ، فقد كنت الآن فقط ترئين لحال قومك في الوطن ، وتنديين حظ أسرى الحرب ، وغير ذلك .

الفتاة : نعم ، ذلك لأنهم يقاسون ويتعذبون . . وأنا أيضاً أقاسى وأتعذب - فهم مثلى وأنا مثلهم - إني أرثى لنفسى ، هذا كل ما فى الأمر - إني أختلف عن نسائكم الإنجليزيات ، فأنا مدركة تماماً كل ما أفعل . . أنا لا ألغى عقلى أو أشله عن العمل بسبب عدم اكتراثى للنواهى الخلقية !

الضابط : وكذلك حالك مع قلبك ، رغم كل ما تقولين .

الفتاة : إنك عنيد جداً أيها الفتى اللطيف ، فكل ما يقال عن الحب والحنان إنما هو خداع وهراء . . إننا نحب أنفسنا ، لا أكثر ! (ينهض الضابط الشاب وهو يشعر بغصة فى حلقه ، لدى سماعه هذه الكلمات ، التى تفيض بالمرارة والأسى ، ويقف عند النافذة - صبى من باعة الصحف ينادى من بعيد على ما يحمله من مجلات وصحف - تشبك الفتاة أصابعها بأصابع الضابط وتظل ساكنة دون حراك - يدير رأسه نحوها ويبحلق فى وجهها - على الرغم من التجميل الصناعى فثمة حسن آثم فتان يبدو على هذا الوجه)

الضابط : لا - إننا لا نحب أنفسنا فقط - هناك ما هو أكثر من ذلك - لا أستطيع أنه أوضح - ولكن هناك أشياء عظيمة - هناك الحنان - و - و -

(يزداد صياح الصبيان بائعى الجرائد ارتفاعاً ، وتشابك نداءاتهم وتتعارض حتى ليصعب تمييز كلماتها بسبب ما يفعمها من انفعال قوى - يرفع رأسه وبرهف أذنيه منصتاً -

تشتد قبضة يدها متوترة وهي الأخرى ترهف أذنيها منصته -
 تزداد نداءات باعة الصحف اقتراباً وارتفاعاً وصخباً -
 يبدو كما لو كان فراغ ضوء القمر في الخارج قد ازدحم
 فجأة بأشباح الناس ووقع الخطوات وعجيج الأصوات ،
 ومن بعيد تسمع هتافات ونداءات متهلفة تقول : « نصر
 عظيم : - نصر عظيم ! رسمى ! بريطاني ! هزيمة ساحقة
 للألمان ! أسر آلاف عدة ! هزيمة ساحقة ! » . . تمر
 هذه الرؤى والأصوات سراعاً ، فتسكره وتملؤه بنشوة عارمة
 من الابتهاج - يطل من النافذة بالجزء الأكبر من جسده ،
 وهو يلوح بقبعته ويهتف كمن به لؤثة ، ويتراءى الليل كما لو
 كان يرفرف ويتماوج ويستجيب - يستدير مندفعاً يبغي
 النزول إلى الشارع ، ولكنه يصطدم بشيء لين أملس ، فيرتد
 متراجعاً - تقف الفتاة بيدين مطبقتين ، ووجه متشنج ،
 وهي تلهث - الكل مرتبك يريد أن يصنع شيئاً ، وعندئذ
 ينحني الشاب ليقبل يدها ، فتتزعجها منه ، وتجمع أوراق
 النقد التي تركها لها ، وتمد له يدها بهذه الأوراق لتردها إليه

الفتاة : خذها - لن أقبل نقودك الإنجليزية - خذها !

(فجأة تمزقها إرباً إرباً ، وتلقى بها إلى الأرض ، وتدير له
 ظهرها - يقف ويتطلع إليها وهي متكئة على المنضدة المغطاة
 بالمخمل ، ورأسها منكس ، بعد لحظة قصيرة يأخذ طريقه
 نحو الباب ليخرج - تظل الفتاة واقفة برهة بعد انصرافه

دون حراك ، ومازالت تدوى فى أذنيها الهتافات ووقع الخطوات
وأصوات النداء على الصحف : « هزيمة ساحقة ! » ، وهى
واقفة ومن حولها قد تناثرت قصاصات أوراق النقد الممزقة -
تشخص ببصرها ، كالحاملة ، نحو ضوء القمر ، فلا ترى
حجرتها البغيضة أو الميدان الكريه الذى تطل عليه ، إنما
يتراءى لها شخصها ، وهى صبية صغيرة ، داخل حديقة
فواكه ألمانية ، وقد راحت تقطف ثمرات التفاح ، وبجانبا
كلب كبير ، كما راحت تمر بمخيلتها مئات أخرى من
المنظر البهيجة ، ثم تهاوت إلى أرض الحجرة ، التى تغطيها
سجادة مغبرة ، فتوسدتها ولصقت بها جبهتها - بطريقة
آلية تجرف مزق أوراق النقد المتناثرة وتجمعها مع الغبار
فى كومة واحدة ، كأوراق الشجر المتساقطة ، وتلعب فيها
بأناملها بينما تنساب الدموع على خديها)

الفتاة : الهزيمة ! . . أرض الآباء ! . . شلن واحد

وفجأة فى ضوء القمر ، تجلس معتدلة ، وتروح تطلق
عقيرتها مدوية بنشيد « الحراسة على الراين » ، بينما يمر
الرجال فى الخارج وهم ينشدون « احكمى يا بريطانيا ! »

ينزل الستار

مسرحية السوق

هي قصة البطولة في أروع وأمجد صورها ، بطولة الجلد والبسالة والتضحية وإنكار الذات .

بل هي قصة الإيمان القوى الراسخ ، الإيمان بالإنسانية وبمثلها العليا ، في عصر تألّفت فيه القوة ، واستبدت بالرأى العام فكرة مدمرة جامعة .

بل هي قصة اليقين الثابت المطمئن ، اليقين بأن الحق لا بد أن يعلو : وأن الغلبة لن تكون للقوى ، بل لكل ذائد عن هذا الحق ، أو بتعبير آخر ، إن الغلبة ستكون دائماً للقوى ، بعد أن ينقلب معنى القوة من النقيض إلى النقيض ، وليس هذا جديداً ولا هو بالعجيب ، فقد أصاب هذا المعنى منذ القرون الوسطى حتى الآن غير قليل من ضروب التحوير أو التغيير ، فاخفت قوة السيف والدرع ممثلة في نظام الفروسية القديم ، واستعيض عنها بقوة الدهاء السياسى والحيل الميكافيلية ، ثم استبدلت هذه الأخيرة بقوة الآلات والمخترعات ، وهانحن أولاء على أبواب عصر جديد ، سينقلب فيه معنى القوة رأساً على عقب ، ويبدل بما هو أسمى وأنبل ، أعنى قوة التحكم في غرائز النفس ، والانتصار على ما تضطرم به أعماق الإنسان من نزعات الشر .

بل هي قصة الاعتداد الذى لا يفسده صلف أو يشوبه غرور . .
الاعتداد النبيل الذى تفيض عنه بعض النفوس البشرية الكبيرة ،

المؤمنة بما فى الحياة من حق وجمال ، الصادقة فى التعبير عن خواجها واستجاباتها لما يصادفها من مشكلات ، والتي لا تخشى الحقيقة مهما كانت سيئة ، ولا تنكص عن مواجهتها ، بل ولا عن ملاحقتها وتذليلها . بل هى قصة قد أفسح فى صدرها ، ومُدّ فى أفقها حتى وسعت هذا كله ، فبطلها رجل قد حوت نفسه أشتات الفضائل ، وفاض قلبه عن أنبل العواطف ، إذ تلاقى الإيمان فى أعماقه باليقين ، والبسالة بالتضحية ، والاعتداد بإنكار الذات .

* * *

هو ذا البطل يبدأ جهاده الطويل الشاق ، الذى تحفه الأهوال من كل جانب ، وهاهم أفراد أسرته يجتمعون ليناقدوا الفكرة التى عزم على أن يجاهد فى سبيلها ، فيجمعون على تخطيطته ، ويحاولون جاهدين أن يثبطوا عزيمته ، ويفتوا فى عضده ، ولكن دون جدوى ؛ وهاهم أخيراً يهددون بالتبرؤ منه إذا أصر ، فيعلنهم بالإصرار .

ففى سبيل الحق الذى انبرى للدفاع عنه وحيداً ما سيلاقيه !
أجل ، فى سبيل الحق الذى شرب سقراط كأس السم ومات كى يحييه ! !

والذى آمن به أرسطو وانتقص من حكمة معلمه أفلاطون كى يعليه !
وأخيراً ففى سبيل الحق ما ادخره القدر لهذا البطل من صراع جبار رهيب ضد أسرته وأمته معاً ، وضد أعدائه وأصدقائه أجمعين !
ولكن للبطل حججه يدلل بها على الحق الذى آمن به وعزم على أن

يجاهد في سبيله ، وله براهينه يفحم بها خصومه ، وإن كان الإيمان لا يحتاج إلى حجة أو برهان ، بل هو كثيراً ما تعوزه الحجة ويعوزه البرهان ، ذلك لأن الإيمان قبس قدسى يشعه القلب الكبير ، وللقلب لغة تسمو على اللفظ ، ولا تنزل إلى برهان من البراهين .

* * *

كانت الجلسة التي نوقش فيها هذا العزم الخطير ، تضم « سير جون » والد زوج البطل - أجل فهو بطل سواء أَرْضَى هذا النعت أنصار الفن المسرحي الحديث أم لا - ثم « أسقف ستاور » وهو شقيق « سير جون » الأنف الذكر و « إدوارد منديب » صديق الأسرة الحميم ، و « كاترين » زوج البطل ، و « هيلين » زوج شقيق كاترين ، وأخيراً البطل « مستر ستيفن مور » وهو في مستهل العقد الخامس من عمره ، فارغ العود ، وسيم الطلعة ، باسم الثغر ، تنطق عيناه بأنه ممن يهيمنون بالمثل العليا .
وقد دار الحوار بينهم كما يلي :

الحوار

الأسقف : لست من رأيك يا استيفن . . أنت وأنا على طرفي نقيض .
ستيفن : لعلك لا تحملي وزر هذا الخلاف
إدوارد : تذكر يوم أن قمت بدعوتك يا استيفن إلى السلام في ظروف مماثلة ، هل قدر الشعب تلك الدوافع النبيلة التي كنت تسير بوحى منها ؟ ! لقد اكتفى الشعب بإهمالك

والإغضاء عنك إذ ذاك ، رفقاَ منه بك ، إذ كنت فى مستهل حياتك النيايية ، أما الآن ، وأنت وكيل وزارة مسئول ، فثق أنه لن يغتفرها لك .

ستيفن : أهذا جزاء من يرضى ضميره ؟ عجباً !
إدوارد : ليس حسناً أن يرضى المرء ضميره على حساب الآخرين يا صاح .
الأسقف : إن الحكومة تعامل جنساً همجياً متوحشاً ، غير أهل لأى عطف أو إشفاق .

ستيفن : لقد صنعهم الخالق يا سيدى الأسقف .
إدوارد : لدى ما يبرر الشك .
الأسقف : لقد أقاموا الدليل على خيانتهم ، فحق لنا أن نؤدبهم .
ستيفن : أيق لى أن أعاقب شخصاً لأنه جازانى بما أستحق ، وكال لى بنفس الكيل الذى كلت له به ؟ !

سيرجون : ولكننا لم نبدأهم بالعدوان
الأسقف : مما يثير الدهشة حقاً أن تحاول تبرير جريمة القتل التى ترتكب ضد الحضارة ورسالتها ! ! لقد قتل المتبر برون الكثيرين من خيرة رجالنا المجاذفين الشجعان .

استيفن : على نفسها جنت براقش . . لقد أخطأوا إذ جاذفوا باقتحام بقاع كهذه ، متحدّين شعور القبائل وعواطفهم ، والرأى عندى أن الأمة يجب ألا تغنى بما يصيب هؤلاء المغامرين المقامرين .
سيرجون : من العار أن نلوذ بالسكون ونعتصم بالصمت بينما ينهش المتوحشون لحومنا ويسفكون دماءنا .

الأسقف : أتذكر أننا نتوخي العدالة دائماً في حكمنا للشعوب ،
ونسعى جاهدين لخيرها ؟ !

ستيفن : لست أنكر دون شك ، ولكنى لا أؤمن بالخرافة الشائعة التي
تزعم أننا قادرون على إفادة شعب كهذا تفصله عنا هوة
عميقة من التباين في التفكير واللون والدين بل وفي كل
نزعة من نزعات النفس . . يقينى أن النهاية المحتومة لتدخلنا
في شئونهم هي بلبلة أفكارهم ، وإفساد غرائزهم .

الأسقف : لست أفهمك .

إدوارد : لو أنك تعمقت يا ستيفن إلى أغوار هذه الفلسفة التي
أتيت بها ، لوجدت أنها ستؤدى بنا حتماً إلى الركود الاجتماعى
والعقم ، فليس ثمة نجوم ثوابت فوق البسيطة يا صاح ،
وليس بمستطاع قط أن يعيش شعب ما بمعزل عن باقى
الشعوب .

ستيفن : تستطيع الشعوب الكبيرة أن تدع الشعوب الصغيرة أو
المتخلفة وشأنها .

إدوارد : نحن نعلم يا صاحبي أنك قد اتخذت من هذه الشعوب
الصغيرة والدفاع عن قضيتها هواية لك ، ولكن لزام عليك
وقد أصبحت من رجال الدولة المسئولين ألا تشتط مع العاطفة ،
وآلا تسقط الواقع من حسابك .

سيرجون : لقد خدمت بلادى خمسين عاماً ، وإني لفخور أن أعلن
أنها لم تكن على ضلال فى يوم من الأيام .

- ستيفن : وأنا صادق الرغبة في أن أخدم بلادى خمسين عاماً ، ولكنى أعلن أنها الآن على ضلال .
- إدوارد : إن البلاد تجتاز الآن ظرفاً دقيقاً لا يصح معه الإفصاح عن مثل هذه الشئون با ستيفن .
- ستيفن : سأعلنها الليلة با إدوارد .
- إدوارد : بمجلس العموم ؟ !
- ستيفن : نعم .
- كاترين : (مأخوذة) ستيفن !
- إدوارد : لابد من منعه يا سيدتى . . هذا جنون دون شك ! !
- ستيفن : لك أن تجاهر الناس بهذا الرأى . . وإذا شئت ، فلتحرر له مقالاً افتتاحياً بإحدى صحف الصباح .
- إدوارد : هذا خبل سياسى ! ! . ليس لمن كان فى مثل مركزك أن يتنكر لبلاده ، بمثل هذه الصورة ، عند اللحظة الأخيرة .
- ستيفن : لم أحاول إخفاء مشاعرى يوماً ما ، فليس هناك من يجهل أننى لست من أنصار الحرب أو الاستعمار .
- إدوارد : لا تكن شاذ الأطوار يا صاح . . إن الحرب لابد معلنة اليوم ، ولن يتيسر لك أو لثأتين من كان أن يوقفها .
- هيلين : (فى انزعاج) أوه ! لا تقل هذا
- إدوارد : لم أقرر غير الواقع يا سيدتى .
- سيرجون : ليس هناك أدنى نيك فى صحة ما نقرره يا هيلين .
- إدوارد : « مخاطباً ستيفن » وهى ستصبر يا ستيفن على أن تميد

إلى التاريخ شخصية دون كيشوت الخالدة ، فروح تهاجم
طواحين الهواء .

« استيفن يومئ بالايجاب »

إدوارد : هذا عظيم !

استيفن : لست أبغى الإعلان عن نفسي .

إدوارد : ولكن هذا من شأنه أن يؤدي بك حتماً إلى هذا الإعلان .

استيفن : لا بد من قول الحق ولو تعرض المرء أحياناً لمثل هذا الموقف

غير المحمود ، ومهما عانى في هذه السبيل .

سيرجون : ولكن هذا ليس حقاً أو شبه حق .

إدوارد : كلما عظم شأن الحق كثرت ألفاظ السباب والقذف التي

تصاحبه ، وتفاقت مرارة الضغينة التي تملأ قلب الشخص

الذي يصيبه هذا القذف .

الأسقف : « محاولا التوفيق وتسوية الأمر » يا عزيزي استيفن ، حتى

ولو كنت على حق - وهذا مالا أراه - فهناك حالات يجب أن

يرضخ فيها الضمير الفردي إزاء شعور الجماعة ، أو شعور

الشعب ، ولا بد أن تلاحظ أن المسألة التي تناقشها الآن

قد أصبحت وثيقة الصلة بالشرف القومي .

سيرجون : لقد أجدت القول يا جيمس ، وأحسن التعبير .

استيفن : إن الشعوب هي أسوأ القضاة ، عندما تصدر أحكاماً تتصل

بشرفها يا سيدى الأسقف .

الأسقف : هذا رأى لا أومن به يا صاحبي .

- استيفن : « فى صراحة صلدة » لا . . بل أنت لا يعجبك قول الحق عندما يكون هذا الحق صارماً مريراً .
- كاترين : « تعترض الأسقف حتى لا يسترسل فى النقاش » عمى جيمس . . دعه وشأنه . . أرجوك . .
- « يتطلع إليها استيفن فى تمنع » .
- سيرجون : وإذا فقد عقدت العزم على أن تتزعم فئة الضالين الفاشلين . . وإن تحطم مستقبلك ، وبذلك تجعلنى أحس عار انتسابك إلىّ كزوج لابنتى ؟ !
- استيفن : هل لزام على المرء ألا يعتنق سوى الآراء التى يهلل لها العامة ؟ ! لقد كنت أنت بالذات يا سيرجون موضع نقد الجماهير وهامسهم مرات ومرات .
- سيرجون : لم أك يوماً من الأيام خصماً لبلادى . . إن كلمتك فى مجلس العموم لابد ستنتشر فى كافة الصحف الأجنبية ، إذ هى لن تدع فرصة كهذه للتشهير بنا وببلادنا تفلت من يدها ، وبذلك سنصبح أضحوكة لكل الأمم .
- استيفن : وإذا فأنت ترى أن المسألة من شأنها أن تعرضنا للنقد ، وأن تجعل منا أضحوكة يسخر منها الآخرون ؟ !
- سيرجون : « محتدّاً » لا تحاول التأويل وفق هواك ، فأنا لا أرى شيئاً مما تقول .
- الأسقف : لقد تخرجت الأمور إلى أقصى حد ، ولا بد من علاج حاسم سريع حتى لا يتفاقم الحال هناك . . تعالى يا كاترين ،

يا عزيزتى ، وضمتى صوتك إلى أصواتنا .

استيفن : ألزام على أن أدافع عن بلادى سواء أخطأت أم أصابت ، وحتى إذا أجمرت ؟ !

إدوارد : لابد من الإجماع على تحطئة المخطئ . « تنهض كاترين والأسقف معاً »

الأسقف : « فى صوت خافت » سيقضى المسكين على نفسه حتماً .

سيرجون : هذه خيانه !

استيفن : لن أدافع عن الظلم ، أو عما أعتقد أنه ظلم .

كاترين : « كمن تقرر الحقيقة » والذى ونحن جميعاً ننفر من الظلم والظالمين .

« يدخل هوبرت جوليان وهو شاب فارغ العود ، عسكرى المنظر »

هيلين : « فى ترحيب » هوبرت !

« تتجه إليه مرحبة به ويتحدثان معاً قرب الباب »

سيرجون : أفصح عن رأيك ! لقد طال ترقبنا لعودتك إلى محجة الهدى والسداد . . لا لم يعد فى قوس الصبر منزع .

استيفن : الرأى عندى أنه من الواجب علينا نحن الأقوياء أن نترفق

بالشعوب الضعيفة ، مهما كان تخلفها عنا . . حبذا لو

اتخذنا من الكلاب قدوة لنا فى ترفق الكبير منها بالصغير !

إدوارد : ليست الأمور من اليسر والبساطة إلى هذا الحد يا استيفن !

ستيفن : عجباً ! ولماذا تغفل الشعوب قواعد النخوة والشهامة المتبعة فى

ديا الكلاب ، وأية حجة يتيسر لهذه الشعوب أن تسوقها
كما تبرر بها هذا الإغفال بل هذا الانحلال ؟ !

إدوارد : استيقظ أيها البطل الحالم الذى يجرى وراء سراب خادع
من أهداف ، فأسئلة لن تتحقق .

ستيفن : إن هذا الهدف الذى ألتمسه لن يفشل يا إدوارد . . قد لا
يتحقق سريعاً ، ولكنه لابد أن يتحقق

إدوارد : بل هو فاشل دون شك ولن يتحقق . . هو فاشل عن حق
أو عن غير حق ، فليس ثمة شك أن لفظ « الوطنية » فى
هذه الفترة العصبية له بريق يخطف أبصار المواطنين جميعاً
وخاصة العامة منهم . . فاحذرهم !
احذر العامة والسوقة يا ستيفن .

ستيفن : مثار عجبى البالغ أن تطلب إلى ، وأنا رجل مسئول ، أن
أتنكر لعقيدتى - فى سبيل إرضاء السوق أو خشية بطشهم
لم تعد ، المشكلة ، فى رأيي ، ذات علاقة بالحق أو بالباطل ،
وما إذا كنت أنا على صواب أو على غير صواب ، إنما باتت
المشكلة أخطر من هذا بكثير ، إذ أصبحت وثيقة الصلة
بكرامتى وشرفي ، فإما أن أناجح عن عقيدتى كواحد من
ذوى المبادئ الشرفاء ، أو أن أتحاشى غضب السوق
وسخطهم ، ثم أتسلل من ميدان الجهاد والكفاح ، فى
استخذاء ذليل ، تسلل الجبناء الأذنياء .

الأسقف : لقد حان موعد انصرافى .

« يوجه الخطاب إلى كاترين »

مساء الخير يا عزيزتى .

« يحى الآخرين وأخيراً يخاطب إدوارد »

هل لك فى مرافقتى ؟ . . أن طريقنا واحد .

إدوارد : « يومئ موافقاً » . . « يرد على الأسقف قائلاً » أجل . .

وأشكر لكم .

« يحى الجميع وأخيراً يخاطب كاترين » عمى مساء مسر

مور . . لا تأذنى لاستيفن بتنفيذ ما هو مقدم عليه ، ففيه

دماره دون شك .

« ينصرف بصحبة الأسقف . . ثم تتأبط كاترين ذراع هيلين

وتصحبها إلى الخارج . . يظل سيرجون واقفاً قرب الباب . .

أخيراً يوجه الأخير حديثه إلى استيفن »

سيرجون : لست أجهل أن لك بعض الآراء المتطرفة يا ستيفن ، ولكن

لم يك يخطر لى على بال قط أن زوج ابنتى سيصبح يوماً ما

من دعاة السلام بأى ثمن .

ستيفن : لست كذلك . . ولكنى أؤثر ألا أشتبك فى أى صراع إلا

مع من كان ندأ لى لا مع ضعيف مسكين هو أهل لعطفى

ورثائى دون شك .

سيرجون : حسناً . . إنى أصرح إلى الله أن تعود إلى رشدى ، فلا ترتكب

حماقة إلقاء هذا الخطاب . . لا بد أن أعود الآن إلى

وزارة الدفاع . . مساء الخير .

« يتقدم هوبرت نجل السير جون وشقيق كترين في أثناء انصراف والده ليحييه في احترام .

ويتفرس في ستيفن زوج شقيقته . . بعد هذا يقف صامتاً وقد بدت على محياه علامات الكآبة والانكسار . . إنه شاب حسن التكوين ، وديع النظرات ، لازال في ميعه الصبا وربيع العمر ، لم يكد يمر عام واحد على زواجه بهيلين » .
هوبرت : « وهو يخاطب مستر ستيفن زوج شقيقته » لقد صدرت إلينا الأوامر .

ستيفن : آه ! متى تبحرون ؟

هوبرت : في الحال

ستيفن : مسكينة هيلين !

هوبرت : . . . ولم نكد نتم العام الأول من زواجنا . . ما أسوأ حظنا وما أشد اسوداد طالعنا !

« ستيفن يمس ذراع هوبرت في إشفاق . . يتابع الأخير كلامه » هيه ! علينا أن نكتب مشاعرنا وألا نفصح عن عواطفنا . . اسمع يا ستيفن . . إياك وأن تجاذف بإلقاء خطابك في مجلس العموم ؛ اشفق على كترين فلا تسحق قلبها ، وأيضاً قدر حروجة مركزأبي في مجلس الدفاع الأعلى وما سآعانيه أنا في هذه الحرب فلا تضاعف ألمي بإصرارك على هذا الموقف مهما كانت دوافعك إليه . . إني أخشى عليك

فلتات اللسان خاصة عندما تنساق بحرارة للدفاع من
أمر من الأمور .

ستيفن : لا بد أن أتكلم يا هوبرت .

هوبرت : لا . لا . لا تجاوز بالكلام هذا المساء ، فبعد ساعات
لا بد ستعلن الحرب .

« ستيفن يتحول عنه »

« هوبرت يتابع كلامه »

... وإذن فإذا كنت لا تكثرث الفقدان مركزك أو وظيفتك
فلا أقل من أن تحرص على سعادة زوجتك ، وأن تنأى
عن أن تكون سبباً في تحطيم قلبها .

ستيفن : ولكنك وأنت شاب غض الإهاب لن تحاول التنصل من
القيام بواجبك في سبيل زوجتك

هوبرت : إنك عنيد يا ستيفن ، ولكنك مع الأسف الشديد كناطح
الصخر ، أو كراكب الفيل الهائج .

« يخرج هوبرت وتدخل كاترين عقب خروجه »

كاترين : هل تنوى الكلام في مجلس العموم حقاً يا ستيفن ؟

« يومئ ستيفن موافقاً »

« تستمر كاترين في حديثها إليه » . . ولكني أطلب

إليك ألا تتكلم .

ستيفن : ليست مشاعري بخافية عليك يا عزيزتي كاترين ، ولكن
العاطفة شيء والواجب شيء آخر . . أيرضيك أن أحس

المهانة والذلة بالنكول عن أداء واجبي ! ؟
 كاترين : بل إنى لموقنة بأن المهانة لن تلحقك إلا من جراء إصرارك
 على مهاجمة بلادك ، وقلب ظهر المعن لها ، والتصغير من شأنها .
 * * *

ولكن ستيفن أصر على موقفه بالرغم من محاولة زوجه
 وأصدقائه جميعاً أن يثنوه عن إلقاء البيان الذى استعد
 لإلقائه بمجلس العموم ، فتوجه إلى هذا المجلس بجنان
 قوى وجأش ثابت غير عائب بتيار الرأى العام ما دام لا يؤمن
 بما يؤمن به ، بل لعله كان يسخر بهذا الرأى
 العام ، ولذلك فقد صح منه الرأى الثابت المكين أن يقف
 فريداً وحيداً يجهر برأيه ، فى اعتداد وإيمان ، دونهما كل
 اعتداد وإيمان ، ولا يحسهما إلا أحرار الفكر والأبطال
 من الناس ، وليكن بعد هذا ما يكون ، ولتزلزل الأرض
 زلزالها ، وتخرج أثقالها ، فهذا لن يعنيه فى كثير أو قليل ،
 مادام سيفصح عن كلمة الحق المدوية التى تدك الجبال دكاً ،
 وإن لم تصل إلى بعض الأسماع ، وهى أسماع مرضى القلوب ،
 إلا همساً ، أو ما هو أضعف وأكثر خفوتاً من الهمس . .
 وبين صفير الاستهزاء الصادر من الأغلبية العظمى من
 أعضاء مجلس العموم المتحمسين الغاضبين ، وإشفاق النفر
 القليل من الأصدقاء والمحبين ، راح ستيفن يلقي بيانه ، محاولاً
 بكل ما أوتى من جهد ، أن يصرف المجلس عن إعلان الحرب

الشريرة غير المتكافئة ، ضد شعب ضعيف أعزل ، ولكن الزمام كان قد أفلت من يده إلى الأبد ، ووافق المجلس على استئصال هذا الشعب المسكين ، وكانت هذه الموافقة المتعدية غير الكريمة بالإجماع أو بما يشبه الإجماع .

“ “ “

خرج استيفن من المجلس وقد زادت الهزيمة إصراراً على موقفه ، وضاعفت رغبته في النضال ، فلاقى من ألوان العنت والنصب والعناء ، ما كان حرياً أن يصرفه عن إصراره على رأيه ، ويرغمه على تعديل وجهة نظره ، ولكنه لم يهن ، ولم يكف عن الكفاح ، في سبيل عقيدته ، فتحمل إهانة السوق من الناس ، في صبر عجيب ، وفي رثاء صادق لهذه الطائفة المخدوعة ، التي تحركها وتعبث بها شرذمة غير أمينة ، من ذوى الأغراض ، ومن غير الشرفاء .

ظل استيفن في موقفه ، ثابتاً كالطود الراسخ ، وراح يكتب مجاهراً برأيه في الصحف القليلة التي بقيت على ولائها لدعوته ، بل ذهب إلى أبعد من هذا ، إذ راح يزور القرى والأقاليم ، يعقد فيها الاجتماعات ، ويخطب الناس ، موضحاً لهم وجهة نظره فيما يتصل بهذه الحرب الغشوم غير المتكافئة ، غير مكترث بما كان يلاقيه في كل مكان يحل به ، من ازورار الناس وانصرافهم عنه ، ومن تهجم السوق عليه ، وعلى زوجه ووحيدته ، الأمر الذي أرغم هذه الزوجة المسكينة إلى هجرانه ، واضطر خدمه جسيماً إلى الهروب من خدمته للنجاة من سخط هؤلاء السوق . وفي إحدى الليالي ، تحرش به فريق من أوشاب الناس ، في أثناء

انصرافه من إحدى هذه المجتمعات ، وشرعوا يمحطونه بكل قول بذيء ، فلما أراد أن يصرفهم عن هذا الفحش ويشق طريقه بينهم ، تعرض له شرير أثيم من بينهم ، ثم كالوا له الضربات بعصا غليظة على رأسه ، فخر على الأرض مغشياً عليه ، ثم تكأأ عليه الصاخبون ، وهو بين الحياة والموت ، ولم يلبث لحظات حتى أسلم الروح .

* * *

ينزل الستار ثم يرفع بعد فترة قصيرة

وعندئذ يختم الكاتب مسرحيته الرائعة ، بمنظر صامت معبر ، لتمثال بالحجم الطبيعي لبطل هذه القصة ، أغنى ستيفن مور ، مقام على قاعدة من الجرانيت ، في أكبر ميادين لندن .
يتراءى التمثال وكأن الوقت في فجر أحد أيام الربيع الطلق الجميل ، حيث الطبيعة قد سخت فألبست أشجار الميدان حلة زاهية خضراء ، ثم يأخذ نور الفجر في الازدياد ، حتى تظهر على قاعدة التمثال هذه العبارة واضحة مقروءة :

أقيم هذا التمثال لتخليد ذكرى

ستيفن مور

مات شهيد تمسكه بعقيدته ومثله العليا

خاتمة الكتاب

جلزورذى الرجل والإنسان

ولابد قبل اختتام هذا البحث أو هذه العجالة من كلمة عن جلزورذى الرجل والإنسان ، على الرغم من أنه لا يختلف كثيراً فى طريقة معالجته لمشكلات الحياة عن جلزورذى الكاتب والأديب ، فى مسرحياته وقصصه وغيرها من إنتاجه الأدبى .

لقد آمن جلزورذى إيماناً عميقاً أن سلطان الرجل فى منزله وبين أفراد أسرته لابد أن يقوم على أسس قوية من التفاهم والتعاطف والاحترام المتبادل بينه وبين زوجه وأبنائه جميعاً ، فلا يتصلب ويتعالى إلى حد الاستبداد برأيه ، ولا يلين ويستسلم إلى حد الخنوع والاستخذاء ، وهكذا توطدت صلة جلزورذى شخصياً بزوجه التى ظلت وفية له ولذكراه بعد مماته ، وفاء دونه كل وفاء ، تدافع عن آرائه ضد خصومه ، دفاع المستميت ، وتحاول أن توضحها وتجلو غامضها ، لمن يرغبون من أحبائه ومريديه وعشاق أدبه العديدين .

ولقد رسمت مسز أيدا جلزورذى لزوجها ، فى علاقتها به ، تصميم فكرته عن الأنثى ، ووضعت له أسسها ، ثم جلت له ما استغلق عليه فهمه من أسرار طبيعتها ، ومكنون غريزتها ، حتى أصبحت هذه الغريزة المتشعبة المستعصية المهمة ، التى حيرت الرجال جميعاً ، العقلاء منهم

وغير العقلاء ، واضحة المعالم والحدود ، ناصعة الانطباع في ذهنه ، لاخفاء منها ولا غموض ، إذ سرت له تقصيصها في تصرفاتها معه ، واستجابتها لما يبيديه نحوها من حب وحنان تارة ، ومن حزم مهذب كريم تارة أخرى ، ثم راح يكتب عن غريزة الأنثى على ضوء من هذا الفهم السليم الذي دعمته التجربة ، وسدد الاختبار خطاه .

بيد أننا لا يهمننا أو يعيننا أن نقرر أنه كتب عن هذه الغريزة أكثر من مسرحية ، وأنه قد وفق فيها توفيقاً كبيراً ، بقدر ما يهمننا ويعيننا أن نثبت أنه قد مارس الأمر بنفسه في حياته الخاصة ، فكان بذلك قدوة ومثلاً وبرهاناً حياً يثبت كل رأى أدلى به في هذا الشأن .

ولقد كان جلزوردي شديد التعلق بالأطفال ، كثير الشغف بالأزهار ، وافر الرفق بالطيور والحيوان الأعجم ، بل لقد كان يعامل الجماد الأصم كما لو كان كائناً حياً ، يعيش ويتحرك ، فكثيراً ما كان يحتفظ بقطعة معينة من أثاث منزله ويحرص عليها ، لا لشيء إلا لأنها تعيد إلى ذهنه ذكريات معينة ، من شأنها أن تجعل هذا الرجل ، المرهف العواطف ، يحس كما لو كان هذا الأثاث ، الصلد الجامد ، ينبض بالحياة أو بما يشبه الحياة .

وبالرغم من عدم إحراز جلزوردي أى تفوق ملحوظ في كتابة الشعر ونظم القريض ، فقد كان يتعامل في حياته مع الناس جميعاً بروح الشاعر الأصيل ودقة حسه ، وفي رحابة صدر الأديب الإنسان وخصوبة نفسه ، ولهذا كان من أكثر الناس فهماً لوحدة الإنسانية المشتركة ، واستيعاباً لما في الحياة ، أو لما يجب أن يكون في الحياة والوجود من حق وجمال

وجلال . ولهذا أيضاً كان من أشد الناس رفقا بالناس وعطفاً عليهم ، حتى ليخيل إلى كل من اتصل به وخلطه بنفسه أنه كان ، من فرط إقباله عليه ، وبشأنته له ، وتفاعله معه في كل أحداث حياته ، ليس غريباً عنه إنما هو قريب إليه ، بل وبضعة منه .

وكان وديعاً متواضعاً دمث الطباع ، يمتقت الإعلان عن نفسه في أية صورة من الصور . وكذلك كان يتتعد دائماً ، في نفور شديد ، عن جميع الأسماء التي يسلمها المجتمع عادة على قادة الرأي وأصحاب الرسالات من الأدباء والمصلحين ، كما كان يتحاشى دائماً أن يزوج نفسه في معترك أي جدال ييزنطى أو نقاش عقيم ، ولكنه بالرغم من هذا كان متحدثاً اجتماعياً من الطراز الأول - بالرغم من تواريه الدائم وحيائه الشديد - لا يحداد يخلو له حديث من دعاية مترفة عابرة ، لا يفتن إليها ، أو يستوعبها ، إلا من دق حسه ، وأرهفت عاطفته .

وكان بحكم دراسته القانونية ومهنته كمحام ، يتقن صناعة الكلام ، أعني أنه كان متكلماً لبقاً ممتازاً ، متألقاً في اختيار عباراته وألفاظه ، وفي طريقة صياغته لها ، كيما تعبر عن المعنى الدسم والفكرة الطريفة والعاطفة المترفة المرهفة ، وكان يملك على السامعين مشاعرهم ، لا بسحر بيانه وقدرته على انتقاء اللفظ المذهب الجميل ، والمعنى الخصب الطريف فحسب ، بل ومقدرته العجيبة على إفحام من تسول له نفسه أن يعارضه أو يقاطعه ، إذ سرعان ما يفاجئه بفكاهة مهذبة خاطفة ، ينفرج لها وجه المعارض أو المعارض عن بسملة عريضة مشرقة ، تنسيه أسباب معارضته ، وتجعل المتكلم المذهب الرقيق سيداً للموقف .

وكان راسخ الإيمان بالله ، جل وعلا ، شديد الثقة بعنايته ورعايته ، ولذلك كثيراً ما حارب من أوغاد لاخلاق لهم ، فلم يهن ولم يتزعزع ولم ينحرف عن إيمانه الراسخ المكين ، أو يتحول عن مبادئه السامية ، ومثله الأخلاقية العليا .

ولقد تقلب طوال حياته في الدمقس والحريير ، فلم تبطرد النعمة قط ، أو تصرفه عن مشاركة المتألمين آلامهم ، ولم ينس يوماً ما حرمان المحرومين ، أو عوز المعوزين ، غير مفرق في هذا ، مع الأسف ، بين المستحقين منهم وغير المستحقين ، ولذلك فقد طالما نهش يده ، ونال من كرامته ، جائع أطعمه ، ومعوز صان عليه كرامته ، ولكنه بالرغم من كل هذا ظل المحسن « غير البصير » الذي لا يحاول أن يتقى شر من غمرهم إحسانه ، من طغام الناس وأوشابهم غير الذاكرين لفضل الفضلاء وصنيع الكرام والأتقياء ، إذ كان التسامح النبيل ، التسامح الشامل الفسيح ، طبيعة قد ركزت في تكوينه ، أو عنصراً ركب في طبيعته وفطرته . بيد أن هذا لا يعنى أنه كان رجلاً غباً ساذجاً ، كلا ، فلقد كانت له عين نقادة ، وبصيرة مرهفة متفتحة ، يفرق بهما بين الأصدقاء من المتصلين به وسواهم من غير الأصدقاء . وإن تقدموا إليه وعليهم جلود الحملان أو مسوح الرهبان .

* * *

أخيراً ، لعل أصدق ما تختتم به هذه العجالة ، ما دونه الناقد الفنى الأديب « ريتشارد تشيرش » فى كتابه « المؤلفون البريطانيون فى القرن العشرين » عن مدى تأثير رسالة جلزورذى الإنسانية على الشعوب البريطانية

بل على العالم أجمع ، فقد قال بهذا الصدد ما يلي : « لقد أسدى جلزورذى إلى المعايير الأخلاقية يداً لا تنسى ، إذ دفع أعضاء الهيئة الحاكمة ببريطانيا إلى مراجعة كل فرد لنفسه ، ومحاسبة هذه النفس على أفعالها ، ثم تعديل تصرفاتها ، كما كشف لدعاة المذهب المادى ، عما يشوب المستويات القديمة ، التى قدروها لمختلف القيم ، من اختلال لا يمكن إنكاره ، فكان أن حقق إصلاحاً كبيراً فيما درج عليه أولئك وهؤلاء ، وكان أن أفسحت الإمبراطورية مكاناً لشيء جديد ، ساهمت آراء جون جلزورذى وتعاليمه فى تكوينه ، هذا الشيء هو ما يسمى الآن « بالكومون ولث » البريطانى الذى حل مكان النظام الإمبراطورى البائد الذى دالت دولته إلى الأبد » .

فهرست الكتاب

الصفحة

٥	مقدمة .
١٩	رسالة .
٢١	عرض عاجل .
٢٢	أهمية الكاتب
٢٣	المسرحيات التاريخية
٢٤	القصة الطويلة
٢٥	بن الإيجاز والإسهاب
٢٦	أسلوب جلز ورذى المسرحى .
٢٨	المسرح بإنجلترا فى القرنين التاسع عشر والعشرين
٣٠	إبسن والمسرح الإنجليزى
٣١	بير برنارد شو وجلز ورذى
٣٤	بين سومرست موم وجلز ورذى
٣٦	وظيفة الفن المسرحى .
٣٧	اجتماعيات
٣٩	اقتصاديات
٤١	أخلاقيات
٤٣	تصنيف
٤٣	حرب الطبقات والبطالة
٤٦	مشكلة العمال
٤٩	الانقلاب الصناعى .

الصفحة

٤٩	المدنية والفطرة
٥١	الحياة الزوجية
٥٢	الزواج غير المتكافئ
٥٣	العنصرية والأجناس الملونة
٥٥	السعادة وملكوتها
٥٦	الفضيلة وفلسفة القوة
٥٨	العاطفة الدينية
٦٢	نقد في مخطوط
٧١	بعض مسرحيات جلزوردي
٧٣	الصندوق الفضي والعدالة
٧٧	مسرحية الصندوق الفضي
٨٣	مسرحية العدالة
٩٧	مسرحية رب بيت كامل
١٠٣	الحوار بين الوالد وابنته الصغرى
١١١	مسرحية الأول والأخير
١٣٥	مسرحية الهزيمة
١٥٣	مسرحية السوق
١٦٩	خاتمة الكتاب

١٩٧٧/١٦٧٢	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧ - ٢٤٢ - ٦٠٧ - ٤	الترقيم الدولي
مطابع دار المعارف - ١٩٧٧	١/٧٦/٥٠٨

367... 1933.

o: www.al-mostafa.com